رمزية الألوان بين الأديان

اليهودية والإسلام

الأستاذ الدكتور

محمد كمال جعفر

الأستاذ بقسم العقيدة ومقارنة الأديان

مقدمة

قد يتساءل المرء وماذا عسى أن يكون بين الألوان والأديان ، والعهد بالألوان أن تكون موضع اهتمام أهل الفن والخيال والجمال ، أو أهل العلوم التطبيقية المرتبطة بالظواهر الطبيعية التي تؤلف عالم الأشكال والألوان ؟

لكننا إذا لاحظنا ارتباط اللون بالنور والضوء ثبوتاً وفناءً ، أدركنا بالضرورة صلة الأديان السماوية على الأقل باستخدام رمزية الألوان أو دلالتها في أغراض عديدة .

إننا سنرى خطورة الدور الذي لعبته فكرة اللون في اليهودية ، وكيف عبّدت السبيل للتشبيه ووجوه الوجود أحياناً ، والتجريد المسرف في السلب أحياناً أُخرى رغم الجهود الجبارة التي بذلت في سبيل الاحتفاظ بالتنزيه المطلق للإله كما نصت على ذلك الشريعة الموسوية .

لقد لعب اللون دوراً كهنوتياً من حيث جعله من الأُسس الهامة في تنظيم الهرم الكهنوتي من الأحبار والرهبان ، وفي بناء الهيكل وإعداد كافة الوسائل والأدوات اللازمة للمذبح وكافة المؤسسات التي تقوم عليها الطقوس والشعائر . وسنرى مدى إفادة الأحبار والرهبان والكهنة من رمزية الألوان في بناء متدرج ومعقد للنظام الكهنوتي إلى الدرجة التي تجعل فهم أسراره أمراً في غاية الصعوبة والعسر .

وسنرى في هذه الدراسة الموقف في الإسلام بعد استيفاء الجانب اليهودي وأنه لن يخرج عن اعتباره أن عالم الألوان لا يعدو كونه عالماً من خلق الله جل جلاله ومن إبداعه ، ولن يكون قط مترجماً أو رمزاً إلى ذاته العلية أو صفاته وأسمائه الحسنى .

إننا سنرى كيف استحالت معالجة الألوان في التراث اليهودي إلى نوع من الرمزية الروحية التي تزيد الإنسان حيرة وضلالاً ، على حين توجهت في التراث الإسلامي لخدمة الواقع العقلي والروحي للناس ، ولم تعمد إلى التعقيد الذي نراه في الكهنوت اليهودي .

لقد استخدمت رمزية الألوان في القرآن والسنة وتراث العلماء إما لإيقاظ حاسة ، أو تنمية ذوق ، أو إثارة الإقبال على الحياة ، أو جمع شمل الجماعة ، وإما للإيضاح والبيـــان بإحالة المجردات أحياناً إلى محسوسات حتى يتحقق الفهم للجميع مهما دنت رتبته العقلية ، وقد تستعمل الألوان لتوجيه الأنظار إلى روعة الإبداع الرباني أو الإنساني . ونرجو أن يتبع هذه الدراسة دراسة أخرى تتناول الجوانب الفنية الخالصة في المجالين اليهودي والإسلامي حتى تتم الصورة التي أريد بها أن تكون دقيقة بقدر الإمكان .

والله نسأل أن يوفقنا إلى ما فيه رضاه وصلاح أمرنا وهو نعم المولى ونعم النصير .

أ . د . محمد كمال جعفر

الألوان في التراث اليهـــودي(١)

لقد عبر بعض الباحثين في النصف الأخير من هذا القرن عن ملاحظة هامة تتعلق بما يراه من نقص في الخيال بدرجة تامة الوضوح في العهد القـــديم (التوراة) من حيث خلو كثير من الآيات والنصوص من كلمات أو مصطلحات تشير بدقة إلى اللون أو الألوان .

وإنه لعجيب حقاً أن يعبر هذا الباحث عن هذه الملاحظة بهذه الصورة حيث يعزو ذلك إلى نقص في الخيال ، مع أن كثيراً من نصوص العهد القديم يشكل الخيال معظم نسيجه ، ولعل الباحث أراد أنه لا يوجد مصطلح دقيق يشير إلى فكرة اللون أو الألوان عامة Colour على حين توجـــد ألوان معينة بأسمائها دون أن تشير إلى درجتها أو أوصافها الدقيقة .

---

(١) التراث اليهودي في معظمه يتألف من العهد القديم الذي يشير في الأصل إلى الكتاب المقدس المنزل على سيدنا موسى وهو التوراة . وبالرغم من تضمنه إنذاراً بعدم إضافة أو حذف أية كلمة منه (سفر التثنية ٤ / ٢) إلا أنه أثناء جمع وكتابة هذا الكتاب العبري المقدس حدثت تغييرات خطيرة تطلبت تفسيرات إضافية ثم تلت ذلك فترات انتشرت وذاعت فيه التعاليم الشفهية التي تضمنت أحكاماً جديدة وأسفرت هذه التطورات التي استمرت بضعة قرون عن مجموعة ضخمة من ستة مجلدات مقسمة موضوعياً إلى ٦٣ رسالة أو قسماً سميت بالمشناة ، ثم تلا ذلك شروح بالآرامية سميت بالجماراه ومن مجموع المشناة والجماراه تألف كتاب ضخم من أربعين مجلداً عرف بالتلمود وله شرح بابلي وشرح فلسطيني . وتفرعت الفرق اليهودية تفرعاً كبيراً ولكل فرقة تفسيرها ، لكننا نعتبر التلمود قد وضع بقصد إعطاء اليهود كتاباً عملياً بعد سقوط القدس وتفرقهم . وقد وجد اليهود بناء على هذا الكتاب ضرورة تعديل الشريعة حتى تتناسب مع الظروف الجديدة التي أحاطت بهم ومن أوضح ما حذف من هذه الشريعة باعتراف نقادهم التعليمات الخاصة بالتضحية وتقديم الصدقات والقرابين وكذلك قضية البعث من التوراة . انظر
Hebrew Literature P. V.

ولكن دعنا نساير هذا الباحث قليلاً لندرك الأبعاد التي يرمي إليها من ملاحظاته — لقد قال هذا الباحث فيما قال إن السبب في نقص الخيال هذا هو « تصور الإله الواحد الذي لا يقبل صورة أو مثالاً أو انقساماً ، هذا التصور الذي نبع من الروح اليهودية المتميزة — الروح العاقلة بلا تخيل أو خيال » . ومعنى هذا في رأي هذا الباحث أن عقيدة الألوهية في النظرة اليهودية وأن عبادة الله — سبحانه — دون تقيد بصورة له قد حالت دون انطلاق الخيال والتخيل لرسم صورة أو صور العالم الإلهي كما أراد هذا الباحث .

ويبدو أنه من مدرسة هؤلاء التطوربين الذين يزعمون أن البشرية وجدت دون راع أو معلم ، وأنه كان عليها أن تتلمس السبل إلى عقيدتها متدرجة في خطاها الوئيدة عبر تصورات وتخيلات وأمثلة حتى انتهت أخيراً — وبعد طول عناء — إلى عقيدة تجريدية منزهة أو متسامية .

ولندعه يكمل رأيه وتصوره لنضع أيدينا على موضع الشطط والخطأ في تفكيره واستنباطه . فهو يزعم أنه بهزيمة وإبطال عبادة الأصنام والتماثيل المدهونة قد وجد عنصر من التجريد والتنزيه في التصورات المضمنة في الشريعة الموسوية — شريعة موسى عليه السلام وفي التصور النبوي لله — هذا التصور الذي يخلو من التمتع بألوان عالم الطبيعة .

ويزعم هذا الباحث كذلك أن النهي عن التشبيه الصوري للإله يعتبر بلا أدنى شك خطوة ثورية في تاريخ البشرية ، وكأن التنزيه والتوحيد لله عز وجل لم يكن الدرس الأول الذي تلقاه آدم ثم بنوه من بعده عبر الأنبياء والمرسلين .

إن العالم الإلهي — في زعم هذا الكاتب(١) — كما أوحي به التنزيه

(١) كثير من آراء هذا الباحث مضمنة في فصل بعنوان
وقد قمت بترجمة هذا الفصل في مجلة أيوجين مصباح الفكر .
The Symbolism of Colours in Jewish mysticism.

٦

والتجريد يختلف مع هذا العالم الطبيعي الجذاب والمثير للخيال ، كما يعتبر ناقصاً لخلوه من إثارة الخيال ولفقره في الألوان ! ! !

وتبلغ المغالطة قمتها حين يزعم أنه الاحتفاظ بعقيدة التوحيد والتنزيه كان باهظ الثمن وكان على حساب الإبداع الخيالي لعقلية البشر ؛ وكأنما أراد هذا الباحث أن يظل الناس عاكفين على نسج عوالم من الخيال ، وصور من الأحلام والألوان حتى تثرى حياة الناس بالتيه والحيرة والضلال .

ومع ذلك فهل كان تصور عبادة الله من غير صورة أو مثال في اليهودية سبيلاً إلى التخلص من الخيال أو منجاة من الوقوع في التشبيه والتجسيم ؟ إن بعض الباحثين يؤكدون أن هناك قيوداً وحدوداً وضعت للتخيل في كل ميدان موجه توجيهاً دينياً ، وقد تضمن هذا انفصاماً من الرباط الدائم بالطبيعة ، ومن ثم انسلاخاً من عالم الألوان .

إننا سنرى أنه في التصور اليهودي لا يستبعد العالم الذي هو بغير صورة أو مثال كافة الصور أو المثل ، بل إنه قد يعتبر نفسه مركزه أو مصدره وعلى ذلك لا ينفي العالم الذي ليس فيه ألوان كافة الألوان التي تحيط به أي أن هناك علاقة بين عالم الألوان المرئية والمحسوسة والعالم الإلهي ، ولا تقتصر هذه العلاقة على مجرد أن الثاني صنعة الأول ، أو ثمرة لعمله ، بل تمتد إلى أكثر من ذلك كما سنرى بعد قليل .

إننا نلاحظ حقيقة أن التعاليم اليهودية في إخبارها عن الله بأنه بغير صورة أو مثال — هذه التعاليم لا تنكر الألوان في المواقف الأساسية والمضامين الهامة في التراث اليهودي .

والواقع أن القصص الكتابية وشريعة التوراة تسند إلى ألوان معينة — وربما إلى ظواهر اللون المختلفة — أهمية ومغزى بعيد المدى من حيث كونها رموزاً محسوسة لما وراءها من مبادىء أو وجود .

صحيح أنه ليس من المؤكد أن هناك تصوراً عاماً للون في الكتاب العبري

أو في اليهودية ، بل إننا نلاحظ أن كلمـــة سبها Sebha التي استعملت مؤخراً في الأدب الربيّ الذي أضيف — هذه الكلمة تظهر في الكتاب المقدس في أغنية دبوراه (١) .

ويمـــكن أن تؤول تأويلاً خاصاً بحيث لا تشير إلى اللون في عمومه ولكن تشير إلى الثوب المتعدد الألوان .

بل إننا نجد ما هو أغرب وأعجب وما هو مثار تساؤل الباحثين الذين يتساءلون لماذا يلاحظ أن الكتاب العبري يستعمل كلمة « عين » Agin في موضع كلمة تشير إلى اللون ؟ إنه يستعمل كلمة « عين » بمعنى المظهر أو كما يبدو أو بعض الشيء الذي يبدو ؟ وهل هذه الكلمة « عين » تشير إلى لون محـــدد ؟

إن هنـــاك كثيراً من الصعوبات تكتنف محاولة التثبيت والتحديد لمعاني تلك الألفاظ في الكتاب المقدس وخصوصاً فيما يتعلق بالألوان الفردية أو الأصباغ فالواقع أن الاستعمال يبدو أكثر تميعاً وانسياباً .

فالسياق الذي قد يتطلب أحياناً مغزى لون معين ، يشير أو يتطلب في الواقع تفسيراً أو تأويلاً لألوان مختلفة تماماً ، والأدهى من ذلك أنه قد يشير في النهاية إلى عدم اللون على الإطلاق .

إن نفس الكلمة الواحدة قد تعني مثلاً أزرق ، أو سماوي ، أو أحمر حمرة الدم ، أو اللون البني لجلد الإنسان ، أو لفرس ، أو البني الذهبي(٢) للعدس ولا يوجد على الحقيقة تعبير محدد بالنسبة للألوان الممزوجة أو المتوسطة .

وقد حاول بعض الباحثين المحدثين تعليل هذه الظاهرة في التراث اليهودي وهي ظاهرة عدم تحديد المصطلحات والدرجات في الألوان في

(١) القضاه ٥ : ٣٠ .

(٢) ولعل من ذلك صفة اللون الأحمر المنسوبة للبقرة التي أمروا بذبحها كما ورد في التوراة .

ضوء ما نشره هوجو مجنوس سنة ١٨٧٧ في كتابه « التطور التاريخي لمعنى اللون » لقد استمر الخلاف بين الدارسين إثر نشر هذا الكتاب حول هذا السؤال هل تطور الإحساس والمعنى الإنساني لظاهرة اللون عبر الألف سنة الأخيرة ؟ وعلى ذلك يجب أن يبحث ما إذا كان في الكتاب المقدس — شأنه شأن العالم الكلاسيكي نفس وصف اللون الواحد الذي يقبل الانطباق على أنواع مبسطة من حيث درجة اللون ؟

لقد افترض بعض الأطباء والبيولوجيين أنه حدث تطور لشبكية العين ، أدى إلى الحساسية تجاه الألوان المختلفة ، وأن هذا التطور كان متقدماً للغاية في العالم الكلاسيكي بحيث استطاع الإنسان أن يميز بوضوح بين الألوان المختلفة ، وأن هذا قد يفسر ما سبقت الإشارة إليه من عدم التحدد والتميز للألوان في القديم .

وقد نازع في هذا الافتراض باحثون جادون ، ولا يملك الإنسان أن يرجح رأي أحد الفريقين .

ونعتقد أن النهي عن نسبة الصورة والمثال للإله في اليهودية لم يمنع كتاب العهد القديم من الإشارات العديدة إلى اللون ، ومع رغبة العبريين في بعض من الأوقات في تطبيق وصية النهي عن الصور والتماثيل (ضمن الوصايا العشر) انظر سفر الخروج ٢٠٪٤ فإنه يبدو أنهم كانوا محاطين بعالم مليىء بالصور والتماثيل والأوثان الملونة وأنهم لم يفلتوا بين الحين والحين من الوقوع في براثن الوثنية والتجسيم والتشبيه للإله الذي ليس كمثله شيء .

أصـــل رمزية اللون :

لقد التقط بعض الدارسين الخيط الذي اعتبره ممثلاً لأصل رمزية اللون خارج النطاق اليهودي ، ثم انتقل هذا الخيط إلى اليهودية ليتم نسيج الرمزية الكاملة للألوان في التراث اليهودي فيما بعد ذلك عبر أجيال ومراحل متميزة .

وكما يقول أحدهم في مطلع القرن الماضي « إن معنى كل الألوان هو النور ، وذلك لأن الظلام محو كل الأنوار ، وهو في نفس الوقت محو كل الألوان . فاللون في الحقيقة ليس إلا ظهور وتجلٍّ للنور ، وليست الألوان في النهاية على اختلافها وتنوعها إلا تعديلات وتكيفات متنوعة للنور . وهي في ارتباطها هذا كارتباط الأصوات المختلفة بنغمة معينة . ومعنى ذلك أن هناك توازياً بين عالم الضوء وعالم الصوت ، فعالم الضوء أنوار وألوان ، وعالم الصوت أنغام وألحـــان ، ونعتقد أن مراد مثل هذا الباحث هو تأكيد أن كل رمزية للون هي في الواقع متوقفة على تصور الضوء أو النور .

وعلى ذلك فإذا اتفقت كل الديانات على نقل تصور النور أو الضوء إلى الوجود الإلهي ، فإن اللون — باعتباره مظهراً للنور — لن يكون له في الأصل إلا معنى واحد هو وصفه لظهور الله — سبحانه — وتجليه — تعالى عما يقولون علواً كبيرا .

ونتيجة لذلك فإن الألوان المختلفة تعتبر رموزاً أساسية للطرق المختلفة التي يظهر فيها أو يتجلى الوجود الإلهي ، فهي تعرض الذات الإلهية — تقدست عما يقولون — من جوانب متعددة وفي علاقاتها المتنوعة بالوجود خارج الذات الإلهيـــة .

وبعبارة أخرى فإن رمزية اللون أو الألوان يمكن موازاتها بتصورات الرجود الإلهي وعلاقته بالعالم .

فكيف إذن يتساوق هذا التصور مع عقيدة التنزيه والتوحيد التي يفترض أنها أساس ومحور اليهودية ؟ إن ذلك يتناقض حقيقة مع النص على أنه سبحانه (ليس كمثله شيء) ؟ علاوة على ذلك فإن التوراة حسب النسخة الموجودة الآن ترفض أن يسمّى الله نوراً ، إذ هو كما تزعم ليس نورا ، بل إن النور خلقه الأول (١) ؟

(١) سفر التكوين : ٢ ، ٣ .

إن هذا التساؤل قد أوقع الباحثين في حيرة لا مبرر لهـا في الواقع فمن المعلوم أن التوحيد والتنزيه كانا أساس اليهودية النقية السماوية بل أساس كل ديانة سماوية حقة ، لكن اليهود لم يحزموا أمرهم ولم يحافظوا على نقاء هذه العقيدة عبر الأجيال ، بل إنهم في حياة موسى عليه السلام — وفي أثناء ذهابه لمناجاة ربه — اتخذوا عجلاً من ذهب إلهـاً ، وكانوا كثيراً ما يطلبون من نبيهم أن يجعل لهم إلهاً وكأن الإله يصنع ، ومعنى ذلك أن الوثنية التي عايشوها في كثير من البلدان والشعوب التي حكمتهم قد تغلغلت في أعماقهم بحيث كانت تطفو على السطح بين الحين والحين كما سنرى من النصوص المتعلقة بما نحن فيه .

لقد استبعد بعضهم أن يكون التفكير حول الألوان معبراً عن الوجود الإلهـي في الكتاب المقدس بناءً على تميزّ عالم الخلق واللون عن مجال وعالم الخالق سبحانه ، ومع ذلك فمثل هؤلاء يسلمون سريعاً بأن هذا التمييز الحاد بين عالمي الخـالق والخلق قد يتعرض لشيء من التغيير كما في التراث القبّالى من خلال التفسير الثيوسوفي للألوهية التي يشار إليها بعدد من الرموز ، وعندئذ يؤخذ في الاعتبار رمزية اللون في علاقتها بالإله الخالق .

وبالرغم مما سبق فدعنا نبحث في الكتاب المقدس عن رمزية اللون وعما إذا كانت تشير من قريب أو بعيد إلى الوجود الإلهي أو الذات الإلهيـة .

إننا سنورد هنا من الأمثلة ما يكشف عن كيفية تسرب الفكر اليهودي إلى مزالق التشبيه وإن كان قد بدأ بمعطيات التنزيه . والمثال الأول نجده في التوراة في سفرها الأول — سفر التكوين (١) — فيما يتصل بقوس قزح * الذي نراه في السماء ، لقد كان هذا القوس رمزاً مادياً أو حسياً للميثاق

(١) الإصحاح التاسع آيات ١١ — ١٧ ص ١٥ من طبعة العيد المئوي للكتاب المقدس / دار الكتاب المقدس ١٩٨٣ م .

* في عهود متأخرة — حوالي القرن العاشر الهجري دخل تراث يهودي حول الحروف والأعداد والألوان حتى إنه ليوجد علم باسم قوس قزح انظر مفتاح السعادة ، وقارن التراتيب الإدارية / ٢ / ١٩١ .

الذي تم بين الله سبحانه وبين كل الكائنات الحية في كل أجيالها المستقبلة إثر الانتهاء من طوفان نوح عليه السلام .

ودعنا نقتبس هذا النص — وإن طال بعض الشيء — ليصور لنا خطوات التدرج التي اتخذها هذا التصور الرمزي لهذه الظاهرة التي جمعت ألوان الطيف أو معظم الألوان في النظرة اليهودية « أُقيم ميثـاقي معكم — فيما كلم الله به نوحاً كما تذكر التوراة — » فلا ينقرض كل ذي جسد أيضاً بمياه الطوفان ، ولا يكون أيضاً طوفان ليخرب الأرض . وقال الله هذه علامة الميثاق الذي أنا واضعه بيني وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحية التي معكم إلى أجيال الدهر . وضعت قوسي في السحاب(١) فتكون علامة ميثاقي بيني وبين الأرض . فيكون متى أنشر سحاباً على الأرض وتظهر القوس في السحاب أني أذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم وبين كل نفس حية في كل جسد . فلا تكون أيضاً المياه طوفانا لتهلك كل ذي جسد . فمتى كان القوس في السحاب أبصرها لأذكر ميثاقاً أبدياً بين الله وبين كل نفس حية في كل جسد على الأرض . وقال الله لنوح هذه علامة الميثاق الذي أقمته بيني وبين كل ذي جسد على الأرض .

وحول هذا النص وجدت تفسيرات أهمها أن قوس قزح كان موجوداً مسبّقاً ثم خصص رمزاً للميثاق بين الله وبين خلقه ، أو أن هذا القوس قد ظهر لأول مرة عقب الفيضان الجبار الذي اجتاح الأرض وأن هذا القوس قد ظهر فعلاً باعتباره أمارة أو شارة على العهد الذي قطعه الخالق على نفسه بالنسبة لجميع الخلائق .

ويعلق بعض الشراح على هذا التفسير الأخير بقوله وبذلك يكون قوس قزح آخر عمل ملون رائع من أجل تمام وكمال الخلق (٢) .

(١) في رواية : « أضع ألوان قزح في السحاب » .

(٢) The Symbolism of Colours in Jewish mysticism.

وهناك تفسير ثالث قوبل بالرفض الشديد من النقاد وهو الرأي القائل بأن انعكاس الشمس على السحب مظهراً هذا القوس يعتبر الانعكاس الملوّن للخلفية الأساسية للوجود الإلهي(١) .

وينفي هؤلاء النقاد أن تعرف التوراة انعكاساً ملوناً مثل هذا للوجود الإلهي ويؤكدون بأن صاحب مثل هذا الشرح وذلك التفسير ربما استعار دون أن يشعر - هذا التصوير والتعبير من القبّالين .

وعل هذا يرجح أن قوس قزح علامة على ميثاق الصلح أو الاتفاق بعد قانون العقوبة - وصورة القوس وهيئته الشكلية أيضاً تشبه إغماد السيف وإخماده عقب القتال كما يقول الشراح والمعلقون القدامى من أمثال إبراهيم ابن إسراء ، وناخمانديس .

ويلاحظ حقيقة أن التوراة - وإن تحدثت عن قوس قزح كعلامة أمن وسلامة لأهل الأرض بناءً على الميثاق الإلهي ، فإنها لا تتحدث عن ألوان أو لون قوس قزح بل تترك الأمر لتصور القاريء وتخيله ، ليتعرف بنفسه على الميزة الخاصة للميثاق من الدور الذي يلعبه لون القوس .

وعلى ذلك - وحتى الآن - فإن قوس قزح في ضوء انسجام واتساق الألوان في ظواهر الخلق لا يشير إلى الوجود الإلهي أو الذات الإلهية كما أراد البعض ، بل يشير إلى طبيعة الميثاق أو العهد المبرم بين الله وخلقه أو بينه وبين نوح عليه السلام .

لكن هذا القوس نفسه الذي اعتبر تكرر ظهوره ضماناً لسلامة وجود العالم ، وإبطالاً لقانون العقوبة - هذا القوس انتهى في التراث الربّي المتأخر إلى تطور غير متوقع ؛ وهو أنه في أيام القضاة اليهود - وهم الملقبون بالعظماء - لم يظهر قط قوس قزح ، لأن حياة هؤلاء القضاة كانت علامة نابضة دالة على الميثاق ، وقد ضمنت بذلك وجود العالم ، ولهذا لم تكن هناك حاجة إلى علامة أخرى كما يقول الشراح .

---

(١) نفس المصدر .

ولعل هذا هو السر الذي من أجله دأب اليهود على ترديد ترانيمهم وأدعيتهم بأن يعيد الله إليهم قضاتهم ـ ليأمنوا في ظلهم غوائل الحوادث وكوارث العقوبات .

لكن دلالة رمزية اللون في قوس قزح لم تظل موقوفة على التذكير بالعهد أو الميثاق المبرم بين الله وخلقه بل إننا نراها تتطور تطوراً خطيراً في مرحلة متأخرة من الكتاب المقدس وبخاصة في رؤيا النبي حزقيال ؛ فهو يصف رؤيته ومشاهدته للمركبة العرشية الإلهية وما يحيط بها من جلال الله ومجده كظهور القوس في السحاب في اليوم المطير ؛ وهكذا كان ظهور البياض والإشراق حولنا ، وهكذا كان ظهور الشبه لمجد وجلال الرب(١) .

ولهذا لا نجد مفراً من الإقرار بأن قوس قزح اعتبر في النهاية رمزاً للتجلي المتعالي للإله مهما حاول المبررون أن يقولوا . فهم لم يزيدوا على القول بأن القوس رمز للتجلي الإلهي هذا التجلي الذي لا تبدو فيه الذات الإلهية ، بل يبدو تجليها في عين النبي .

أي أن النبي هو الذي تبدو له هذه الصورة من التجلي كما يتهيأ له ، ومعنى هذا أن الأنبياء يمكن أن يقعوا في التمثيل والتشبيه ، ويمكن ألا تصور رؤيتهم الحقيقية ، وربما كان هذا أقل ما وسم به اليهود الأنبياء كما سنرى من خـــلال البحث

« الألوان والكهنوت » :

تتحدث التوراة في سفر الخروج عن صنع الثياب الكهنوتية التي ينبغي أن يتزيا بها الكاهن أو الحبر ، وكأن هذه التعليمات التفصيلية عن ألوان

(١) الواقع أن رؤيا أو رؤية ومكاشفة حزقيال طويلة للغاية تتناول كل ما يمر بإسرائيل من محن وآلام وعقوبات لكن المهم أنها تعالج ، ويحدد سنتها وشهرها ، كما يتحدث عن الملائكة والكهنة في إصحاحات متتابعة . انظر حزقيال الإصحاح الأول وما يليه ص ١١٧٥ من الكتاب المقـــدس .

ومواصفات الثياب والحواشي والطرر والطرز التي تزينها مما أوحى الله به إلى موسى عليه السلام . ويتألف الزي المقترح في التوراة من رداء وصدرة وجبة وقميص فحرم وعمامة ومنطقة إلى جانب الأجزاع والنقوش الذهبية والاسمانجونية « السماوية – كما تتحدث عن الطرر في جوانب ثياب بني إسرائيل عبر أجيالهم جميعاً . . ونلاحظ أن الألوان تتناول كل ما أمر موسى بصبغه حسب رواية سفر الخروج ، سواء في ذلك ما يتعلق بالمذبح أو المحرقة أو الثياب المقدسة الخاصة بهارون وبنيه ، أو الثياب الخاصة بالمستويات المتعددة في سلم الكهنة والأحبار ، وكذلك ثياب القضاة وترصيعها بالحجارة الكريمة التي تشكل أربعة صفوف : صف عقيق أحمر ، وياقوت أصفر وزمرد ، وصف آخر للياقوت الأزرق والعقيق الأبيض . . الخ هذه الألوان المختلفة . لكن مما يلفت النظر في كل هذه الألوان المتعلقة بالثياب وما عليها ما يشترط من صنعة الهدب أو الطرر التي تكون في حاشية الثوب وعلى كل طرة شريط أزرق . فإن الهدف من ذلك كما ذكر صراحة هو « إغـــراء النـــاس بالنظر والتحديق في هؤلاء ؛ فإن هذا التحديق سيحضر إلى الذهن كل الأوامر الإلهية ، وسيؤدي بالتالي إلى تحقيق وإنجاز هذه الأوامر .

وهـــكذا نعود إلى مسألة اللون والتذكر . لقد نسب اليهود في كتابهم المقدس إلى الله سبحانه إمكان تذكره للميثاق الذي أبرمه بينه وبين الخلق عند رؤيتـــه لقوس قزح ؛ والله – عز شأنه – لا يضل ولا ينسى وكأنهـم لم يفعلوا شيئاً إلا أن خلعوا صفات المخلوق على الخالق – تعالى عما يقولون .

إن كتّاب التلمود يذكرون أن النظرة إلى هذه الألوان على ثياب الكهنة والأحبار تؤدي إلى التأمل ، والتأمل يؤدي إلى العمل . إن اللون الأرجواني بين الطرر البيضاء الأخرى التي تتكون من سبعة خيوط بيضاء وخيط واحد أزرق ، كما تقضي بذلك التعليمات الكهنوتية يشير في زعمهم إلى الأصل الإلهي لكل هذه الأوامر ، وبذلك يتقمص الكاهن شخصية المشرع الذي

لا ينبغي أن يعصي لأن أوامره مستمدة من الله بدليل انفراد لونه بين الألوان الأخرى .

ويشرح التراث التلمودي من القرن الثاني للميلاد هذا بالقول بأن من يحفظ الأوامر الخاصة بالطرة ، ويتعرف على اللون الأزرق فيها ، يبدو وكأن وجه الله الكريم قد كشف له ، لأن الزرقة تشبه البحر ، والبحر يشبه الفلك ، والفلك عرش الجلال والمجد الإلهي ، وعرش الجلال الإلهي يشبه الياقوتة الزرقاء .

ومما لا شك فيه أننا نجد العلاقة بين الزرقة وكل من البحر والسماوات موجودة خارج التراث اليهودي ، ولكن العلاقة بين هذا اللون وبين العرش السماوي ترجع في الواقع إلى نصين من الكتاب المقدس ذاته ، وفيهما تقارن زرقة الياقوتة في المشاهدة الروحية بالعرش السماوي باعتبار أن المنطقة التي تصبح مرئية للعين « إنما هي تحت قدم الله » تعالى عما يقولون . بل إن حزاقيل يضيف الحيوانات الأربعة التي تحمل المِركبة التي تعلوها قباب الملائكة .

يقول حزاقيل « . . . ورأيت مثل منظر النحاس اللامع كمنظر نار داخله من حوله من منظر حقويه إلى قدمه ، ومن منظر حقويه إلى تحت رأيت مثل منظر نار ولهـــا لمعان من حولها كمنظر القوس التي في السحاب يوم مطر (قوس قزح) هكذا كان منظر اللمعان من حوله هذا منظر شبه مجد الرب ، ولما رأيته خررت على وجهي وسمعت صوت متكلم . . . فنظرت وإذا بيد ممدودة إليّ وإذا بدرج سفر فيها ، فنشره أمامي وهو مكتوب من داخل ومن قفاه أو كتب فيه مراثي ونحيبٌ وويل » (١) .

وحين يتحدث حزاقيل عن الملائكة والحيوانات التي رآها ورءوسها وأجنحتها يذكر أن فوق رءوسها مقبباً أي قبة كبيرة وهو شبه عرش كمنظر

(١) وصف حزاقيل للملائكة وللحيوانات أيضاً (الكتاب المقدس) حزقيال / الإصحاح الأول/ ٦ وما بعدها .

حجر العقيق الأزرق وعلى شبه العرش شبه كمنظر إنسان عليه من فوق » (١) .

أفبعد هذا يشك باحث في أن هذا الكلام كلام مجسم مشبه لا يرعى جلال الله وتنزهه . لقد حاول كُتاب كثيرون أن يدافعوا عن عقيدة التوحيد والتنزيه في اليهودية ، وهم على حق إذا قصدوا نقاء العقيدة كما جاء بها موسى عليه السلام ، ولكن بعد أن نرى اليهود ينسبون إلى هارون (٢) أخي موسى عليهما السلام صنعه للعجل تنفيذاً لرغبتهم في عبادة إله من صنعهم يمشي أمامهم بعد أن غاب موسى عليه السلام عنهم في مناجاة لربه — بعد أن نرى هذه التهمة الشنعاء منسوبة إلى نبي من الأنبياء ، لا نستبعد أن ينسب إلى غيره ما يخل بعقيدة التوحيد والتنزيه وما يخل أيضاً بجلال وصحة وسلامة إيمـــان الأنبياء .

لقد ذكر في سفر الخروج أن هارون عليه السلام أمرهم بأن ينزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائهم وأتوا بها إليه فصوّرها عجلاً مسبوكاً وبنى مذبحاً أمامه ونادى « غداً عيد للرب » (٣) .

تصريح أوضح بالتجسيم والتشبيه :

على أن هناك نصوصاً صارخة في الدلالة على التشبيه والتجسيم ، ومنها هذا النص الذي يكثر اقتباسه في الدراسات اليهودية في مختـــلف العصور . ويتضح من هذا النص أنه بالنسبة لنساخ المصادر التقليدية المتنوعة والمستمدة من أشتات مختلفة في التوراة — يتضح أن فكرة كون الله — سبحانه — بغير صورة أو مثال لم تمنع من القول بإمكان حضوره بطريقة خارقة لكنها لا تخرج عن صريح التشبيه .

ونقرأ في التوراة في سفر الخروج أن موسى وهارون وسبعين من شيوخ

---

(١) انظر حزاقيل الإصحاح الأول ٢٤ — ٢٨ من الكتاب المقدس ص ١١٧٦ .
(٢) انظر الخروج الإصحاح الثاني والثلاثون ٢ — ٦ .
(٣) أين هذا الافتراء والتخبط من الدقة القرآنية التي تصف الواقعة في أمانة وصدق وتظهر أن هارون عليه السلام كان ضحية تجبر القوم وخشية تفرقهم ، وأن الغاوي لهم إنما كان السامري وليس هارون . انظر القرآن الكريم / طــه من قوله تعالى : « وما أعجلك عن قومك يا موسى : ٨٣ وما بعدها .

إسرائيل « رأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف ، وكذات السماء في النقاوة ، ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل ، فرأوا الله وأكلوا وشربوا »(١) . ! ! !

وهذا النص الذي أسلفنا اقتباسه يتناقض تماماً مع نص آخر في نفس السفر — سفر الخروج(٢) — إذ يذكر في النص الأخير أن موسى سأل أن يرى مجد الرب فقال الرب « لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش »(٣) .

إن القول الذي يسوقه بعض النقاد بأن التصور اليهودي للألوهية بعيد من التشبيه لأنه لا يذكر للألوهية لوناً خاصاً — هذا القول غير صحيح بالمرة لأن النص الذي أوردناه يذكر ظهور الله — تعالى عما يقولون — فوق زرقة هي في الواقع أقرب إلى العرش السماوي من زرقة السماوات ؛ بل إن هناك نصوصاً تدل على إمكان رؤية الله كنار مشتعلة ومستعرة على قمة الجبل ، وهذا يؤكد خلط النساخ بين العلامات أو الإشارات التي ينبه الله بها عباده ليوحي إليهم ما شاء كيف شاء وبين الذات الإلهية في علوها وتقدسها . وقد ثبت عبر التاريخ الطويل أن اليهود في جمهرتهم لم يستريحوا قط إلى العقيدة الصحيحة المنزهة لله سبحانه وتعالى ، وتاقت نفوسهم دائماً إلى اتخاذ كيانات مادية ملموسة كآلهة معبودة ، ولعل القرآن الكريم قد أشار إلى ذلك عندما تعرض لسؤالهم موسى أن يتخذ لهم إلهاً كآلهة القبائل التي كانوا يمرون عليها ، وعندما ذكر أيضاً طلبهم إلى موسى أن يريهم الله جهرة .

---

(١) الإصحاح الرابع والعشرون / ٩ — ١٢ .

(٢) الإصحاح الثالث والثلاثون ١٨ — ٢٠ .

(٣) وهذا قد يتفق مع ما ورد في القرآن الكريم : « لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني » . وهنا في التوراة نجد ما يشهد بوقوع تحريفات مع وجود آثارات من العناصر الأصلية . وإذا لاحظنا أن هذه النصوص التوراتية قد كتبت في عهود متفرقة وبلغات مختلفة ومن الذاكرة في معظم الأحيان — إذا لاحظنا هذا أمكننا أن نفهم سهولة وقوع التحريف بالقصد أحياناً وبغير قصد أحياناً أخرى . وقد نرى فيما يتعلق بمسألة هارون وعبادة العجل نصوصاً أخرى تنقض ما سبق أن أشرنا إليه مما يدل على تناقض مصادر كثيرة من نصوص التوراة .

إن وصف عرصة العرش أو الطوار الإلهي باللون الأزرق يرجع في الواقع إلى مصادر وثنية قديمة كانت تقدس نوعاً خاصاً من السمك أو الحيوانات البحرية التي كانت تفرز ما يشبه الدم الأزرق ، ولعل فكرة شرف الدم الأزرق التي سادت بعض دول أوروبا في العصور الوسطى إنما كانت إحياء لهذا الاتجاه. وإننا لنلاحظ أن اللون الأزرق قد لعب دوراً بارزاً في الكهنوت اليهودي حيث اتخذته الطرر التي صنعت في ملابس الكهان والكاهن الأعظم .

وفي الواقع يتضمن سفر الخروج تفصيلاً عجيباً للمواد وللألوان اللازمة لبناء الهيكل والمذبح والمبخرة والثياب اللازمة لمختلف مراتب الكهنوت ويلاحظ في هذا السفر أن الألوان الأربعة السائدة في كل هذه العناصر وهي الألوان : الأزرق الصافي ، والأرجوان – ويسمى أحياناً أرجحان – وهو يتراوح بين الأحمر والأزرق والبنفسج ثم القرمزي أو الأحمر الزاهي ثم الأبيض الناصع . وهذه الألوان مذكورة حقيقة أكثر من ثلاثين مرة بنفس النظام والترتيب . كما يلاحظ أن المعادن الثلاثة : الذهب والفضة والنحاس مذكورة بالترتيب ضمن المواد اللازمة لأدوات الهيكل كما تذكر السجاجيد التي تعطي الهيكل والستائر وحلية الصدر المربعة الألوان .

وهنـــاك ثياب كهنوتية ثلاثية اللون أو مفردته ، ولكنها إذا كانت مفردة استأثرت باللون الأزرق وعلى الأخص فيما يتصل بقباء أو جلباب الكاهن الأعظم حتى الأربعة التي تربط السجاجيد .

أما اللون الأبيض فقد خصص للملابس الداخلية ولعمامة الكاهن الأعظم . ويلاحظ أن التوراة استبعدت من الألوان الأسود والأصفر والأخضر ؛ويعلق بعض النقاد على ذلك بأنه لم يكن بمحض الصدفة ، بل إن استبعاد الألوان القاتمة – وبخاصة الأسود – إنما كان لأن هذه الألوان قد استعملت في استعارات كتابية وإنجيلية رمزاً لمناقضة الطهر أو إبراز التضاد

مع عالم الضياء والنور على حين أن الألوان الزاهية المشرقة الواردة في التوراة تمثل جوانب هـــامة من الحيّ (١) .

على أنه قد ورد أيضاً تشبيه الذنوب باللون القرمزي واللون الأحمر « رغم أن ذنوبكم تشبه القرمزي فإنها ستصبح بيضاء كالثلج ، ورغم أنها حمراء قانية فإنها ستصبح بيضاء مثل الصوف .

ولقد عرف البنفسج كعلامة على الشرف والقوة وذاعت شهرته في الشرق الأدنى ولكنه عرف أيضاً في الكتاب المقدس حتّى وقت كتابة سفر القضاة .

عــَلمَ إسرائيل :

إن من الأهمية بمكان أن نعلم أنه من عادة الجمع بين اللونين الأبيض والأزرق في الطرر والأهداب (أو الهدب) المطرزة على ثياب الكهنة أرادت إسرائيل أن ترتبط بهذه الرمزية التي احتفظ بها الكتاب المقدس فجعلت علمها يحوي هذين اللونين الأبيض والأزرق على عادتها دائمــاً في محاولتها الارتباط بالماضي السحيق ، لتعلقه بما تسميه أرض الميعـــاد .

ردود الأفعال المناوئة للألوان :

لقـــد كان لإسراف اليهود في مراعاة الألوان والعناية بها إلى الدرجة التي أحالت التدين إلى نظام آلي معقد من البروتوكولات أو الطقوس الموغلة في التكلف والسطحية — لقد كان لكل ذلك ردود فعل مضادة ،حيث لاحظ كثيرون أن حياتهم الدينية قد أضحت نوعاً من السرف والرفاهية والتمتع « والإيتيكيت » ومن هنا قامت حملة عنيفة ضد العناية بالألوان ومراعاتها

(١) هذا بعيد جداً عن النسق الإسلامي ، صحيح أن السواد وصفت به وجوه المذنبين يوم القيامة . لكن ذلك لم يمنع من اتخاذ أعلام ورايات سود بل وعمائم تحمل هذا اللون في القتال ، ومع ذلك فلم يقتصر الإسلام على اللون الأسود ولم يتمسك به وحده؛قارن الفقرات التالية في الجانب الإسلامي .

في الملابس والأدوات الخاصة بالعبادة ولقد قاد حزاقيل(١) — الذي عاش في المنفى البابلي بين هدم الهيكل وإعادة بنائه الثاني — قاد حملة لمحو كل الألوان الزاهية من الملابس الكهنوتية وتركها لتكون بيضاء فقط ومصنوعة من القطن (فكانت بافته أو دمور) .

وفي نهاية المطاف لهذا النظام الكهنوتي للألوان لا يفوتنا أن نشير إلى أن الألوان الأربعة الأساسية التي سبقت الإشارة إليها قد تحولت فيما بعد وانتقلت إلى مواد مخصوصة واعتبرتها التوراة غير نقية خارج النطاق الديني ، أي في صميم الحياة المدنية ؛فقد منعت اختلاط هذه المواد في الثياب وبخاصة بين الصوف والعبك — الكتان — والقطن مع جواز اختلاطها في قباء الكاهن الأعظـــم .

وهنـــاك نصوص تروى بروايات مختلفة حول العمد الأربعة التي تبسط عليها خيمة الإقامة التي أمر الله موسى بصنعها . كما يذكر أن الله — سبحانه قد أرى موسى النار الحمراء والخضراء والسوداء والبيضاء وقال له : اجعلني مقيماً عندك . وقال موسى : رب الكون ! ! أين أجد النار الحمراء والخضراء والسوداء والبيضاء فقال له : انظر كيف نجعلك تتبع النمط الذي أريته على الجبل(٢) . وقد حاول بعض الربيين أن يؤول هذا النص بأنه مثل ملك ظهر لأحد أتباعه في روب مرصع بالدر ، وقال له : اصنع لي مثل هذا قال : ربي ومليكي : أين أجد روباً تام الترصيع بالدر مثل ذلك ؟ أجاب الملك ! أنا بمجدي وأنت بأصباغك .

(١) الواقع أن هناك تشابهاً بين الأسماء اليهودية في مختلف العصور وكذلك في الأسماء المسيحية وهذا مما قد يوقع الباحث في حيرة أو خطأ ، ومع ذلك فيبدو أن هذا الاسم هو نفسه صاحب الرؤية المثبتة في سفره والملحقة بالتوراة ، لأنه يذكر في بعض الاصحاحات لبس الكتان بالنسبة للكاهن الأعظم .

(٢) الواقع أنه يرد في سفر الخروج حديث الرعود والبروق والسحاب الثقيل على الجبل وصوت البومه وتدخين جبل سيناء لأن الرب نزل عليه بالنار « » وصعد دخانه كدخان الأتون (١ صحاح ١٩) لكن يذكر في الاصحاح ٢٤ رؤية إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيقة الأزرق .

ويذكر المعلقون بأن هذا يعني أن الألوان الأربعة التي استعملها موسى - عليه السلام - في بناء بيته تتطابق مع الألوان السماوية التي فيها تجلى مجد الله ويمكن إرجاعها إلى الألوان الأساسية التي أظهرت لموسى ، فبدلا من التكلث الكتابي (الأزرق) والبنفسج فإن ناراً خضراء وسوداء وحمراء وبيضاء تظهر .

لقـــد كان لمثل هذه الألوان أن تنتقل فيما بعد ذلك إلى رمزية قبالية إشراقية عجيبة .

* * *

تأويلات فلســفية للالوان :

إننا نلمح الجانب الفلسفي بوضوح في محاولة فيلون الاسكندري شرح هذه الألوان في ضوء فكره الفلسفي الذي استقاه برمته من اليونان ، لقد بعث فيلون بشرحه لهذه الألوان الأربعة الأساسية فكر مدرسة العناصر . تلك المدرسة التي بدأت بطاليس وانتهت بفيثاغورس . وقد رأى فيلون أن هذه الألوان الأربعة كناية في الحقيقة عن العناصر الأربعة التي تشكل الكون في أصوله الأولية . فالأبيض يمثل الأرض التي تم عليها النماء والسير ، والأزرق المتمثل في السماء والبحر يمثل الماء لأنه مستمد من دم ثعبان البحر (أو السمك الخاص الذي سمي بسمك الحبر)(١) .

وأما الأزرق الخفيف فيمثل الهواء الذي يظهر في زرقة السماء ، بينما يمثل اللون القرمزي النار .

الألـــوان والأحـــلام :

تعتبر الأحلام جنة للتأويلات في التراث اليهودي وبخاصة في التلمود ، وتتصل هذه التأويلات بلا شك بالتحليل النفسي سواء نجح التأويل أو أخفق

(١) ملحوظة لا ندري أتقرأ « الحبر » بفتح الحاء بمعنى العالم الموسوعي وهو لقب يهودي ، أم تقرأ « الحبر » بكسر الحاء إشارة إلى لون الدم الذي يخرج منه وهو اللون الأزرق .

ويمكن أن يقال بصورة عامة أنه في الأحلام تعتبر كل نمـاذج الألوان فألاً حسناً ما عدا الأزرق . إننا نطالع في كتاب الأحلام الشهير لارتميدر نقاشاً حول المعاني المتنوعة للألوان في الأحلام . فالأزرق الغامق مثلاً يشير إلى الموت ، لأن هذا اللون يتضمن مشاركة معينة مع الموت(١) .

وقد خصص الكسندر كريسنا بولور دراسات عميقة للأحلام في التلمود ذكر فيها أن تأويل ارتميدر للأزرق ينبثق حقيقة من الدوائر اليهودية . كما ذكر أنه بالنسبة لألوان الخيل في الأحلام فإن اللون الأبيض علامة على الفأل الحسن ، بينما المنقط مثل الشطرنج على النقيض من ذلك .

ويرتبط اللون الأبيض على كل حال بالطهارة والنقاء حتى في أكثر السياقات تبايناً وتعارضاً – والغريب أنه يذكر أن الله – عز جلاله وتعالى عما يقولون – عندما يظهر للخلق يطل بنور أبيض ، ومن النور الأبيض ظهر أصل كل الألوان .

والواقع أن تصور البياض كلون يشير إلى النقاء والطهارة يتطابق مع وصف المشنا لشعيرة يوم الخلاص أو يوم الفداء ، وواجبات الحبر الأكبر في عصر المعبد الثاني ، فهو عادة يغير ثيابه التي ازدانت بأنواع مختلفة من الألوان والزينة ، ولكنه عندما يدخل إلى قدس الأقداس – حسب المواصفات التفصيلية المضمنة في سفر الخروج – وهو يدخل هذا القدس مرة كل عام – عندما يدخل إلى هذا الموضع ، وبعبارة التوراة « عندما يقف منفرداً أمام الرب » فإن ثيابه يجب أن تكون بيضاء ناصعة ، بسيطة ، بغير زينة أو حلية (٢) .

وهذا يتفق أيضاً مع الفكرة التي ألمحنا إليها في الأدب التلمودي ،

(١) قارن ما سبق ذكره عن الأزرق في الدائرة الكهنوتية وعن كونه لون الطوار أو ساق العرش كما سيأتي . لاحظ أيضاً أن القرآن الكريم في سورة طه / ١٠٢ يذكر أن المجرمين يحشرون يوم القيامة زرقا ، في الأبدان أو في العيون حسب توجيه الآراء كما سترى ذلك في الفقرات التالية .

(٢) الخروج : الاصحاح الثامن والعشرون .

وكذلك في المدراش ، غير أنه في المدراش تذكر فكرة خطيرة تتعلق بزاويتين متميزتين في تصور الألوهية في هذا التراث(١) .

إن لله — جل جلاله — كما يشير هذا التراث جانبين في الفعل : رحمته وحبه في جانب ، وقدرته وقوته في جانب آخر ، ويرمز إليهما دائماً بالأبيض والأسود .

أما في الروايات المتأخرة نوعاً ما فإننا نجد أن الثياب البيض هي زي الصالح النقي الذييبعث فيها أو يحشر إلى خيمة الشعب المختار .

أما السواد فقد أوصى بلبسه أحد معلمي القرن الثاني بالنسبة لمن لم يستطع التحكم في غرائزه وخضع للإغراء الجنسي . وإنه ليفعل ذلك قبل ارتكاب ما لا يستطيع الامتناع عنه . وكأن لبس السواد هنا إشارة إلى الحزن أو الحداد من أجل هذا الضعف النفسي ، وتوقعاً في الوقت نفسه لأوخم العواقب .

ومهما يكن من أمر فإن تخصيص الأسود للحداد أمر معروف من نصوص في المصادر القديمة ، ولكن أحداً لم ينصح به ، ولم يطلبه من أحد إلا أنه ورد من أوصاف جهنم — ابتداء من عصر التلمود فما تلاه — أن لون نفوس أهلها الأشرار يكون أسود كوعاء السخام أو الزفت بسبب الأعمال الشنيعة التي ارتكبوها (٢) على حين أن أرواح الناس العاديين البسطاء لهـا لون أخضر باهت بسبب أعمالهم الخاطئة قبل التطهر بنار التطهير .

الألوان والعصبيـــة :

وهنـــاك ظاهرة يجب الإشارة إليها بالنسبة لرمزية الألوان في اليهودية ، وهي ما نلاحظه في أعلام أو رايات القبائل الإسرائيلية الثنتا عشرة حيث ترد بالتفصيل مضمومة إلى الأحجار الكريمة التي نقشت عليها نقوش مختلفة

(١) كثير من هذه الأفكار نجده في التراث القديم للديانات الشعبية انظر :
F. Cornford, From Religion to philosphy. pp. 21 ff.

يراد منها تشخيص ووصف القبيلة ورأسها ، على أن تتبنى كل قبيلة — ومن ثمّ كل راية — رمزاً معيناً من الحيوان أو الجماد . وتسرد الألوان الأساسية وما ينتج عن مزجها والجمع بينها وهي الأحمر والأخضر والأسود و الأبيض والأزرق الصافي — تسرد هذه الألوان مع الصور التي تتخذ لكل راية .

إن هذا التفصيل الدقيق — والممل في كثير من الأحيان — إنما يرد في التراث الربي . وعلى صدر الكاهن الأعظم — الذي يفترض أن يؤم الجميع توجد الأحجار الثنتا عشرة وعليها نقش أسماء القبائل أنفسهم (١) .

إن هذا التفصيل لم يذكر على وجه التحديد في التوراة . وإنما ذكرت الألوان والرايات بصورة مجملة مع نسبة كل لون إلى رأس قبيلة أو سبط كما ورد مثلاً عن الياقوت الأحمر وتوافقه مع « نوفخ » الذي رايته لازوردية زرقاء وعليها أسد . (١)

وتسرد القبائل الثنتا عشرة برءوسها التي تنتهي بيوسف — عليه السلام — ويمثله شهم « الحرز .. ورايته كانت سوداء داكنة ، ويبدو ولداه في الزي المصري ، على حين أن بنيامين تحوى رايته كل الألوان وعليها صورة ذئب كما ورد في سفر التكوين .

ومن استقراء الألوان والرموز المتبناه للقبائل ورءوسها يبدو أن سيرة القبيلة ورأسها لهما دخل كبير في تحديد الرمز بل اللون أو الألوان أيضاً ، وأحياناً يعلل الاختيار بما يشهد بصحة استنباطنا وهو أن الاختيار قد قام على أساس التقويم والتقدير لطبيعة ومزاج وسيرة القبيلة التي أُختير لها اللون والرمز في علمها وتراثها .

وعلى سبيل المثال عندما تحدث سفر التكوين ٤٩/١٣ عن زيبلون قال إن اللؤلؤ يمثله ، ورايته بيضاء وعليها سفينةً ، فقد أُختير الرمز واللون

(١) انظر سفر الخروج ، الاصحاح الثامن والعشرون ، ٧ — ٣٥ .

والصورة على هذا النحو لأن القبيلة عاشت على ساحل البحر ، ومارست الملاحة (١) .

وتدور كل الرموز تقريباً في سفر التكوين في الاصحاحين التاسع والأربعين والسادس والأربعين .

استئناف التأويل الفلسفي لنصوص الألوان :

لقد رأينا فيما سبق كيف لجأ فيلون الإسكندري في تأويله لرمزية الألوان الأربعة الأساسية إلى التراث اليوناني حين فسرها بالعناصر الأربعة التي تألف منها العالم . أما الآن فقد حان لنا أن نعرج على فيلسوف آخر كان مَعْبَرَا ومُعَبِّرا عن فلسفتين وهما الفلسفة اليهودية والفلسفة الإسلامية في نمط من أنماطها وهي الفلسفة المدرسية التي تأست خطا الفكر اليوناني في هيكله العام . ذلكم هو موسى بن ميمون كما نقرؤه في كتابه « دلالة الحائرين » .

فإلى جانب ما يشير إليه « ابن جبرول » وابن ميمون من أن النفس الإنسانية لديها ألوان روحية مجردة يمكن أن ترى عندما تطرف أجفان العين — إلى جانب ذلك نود أن نعرض محاولته في تأويل النص الذي سبق اقتباسه سلفاً فيما يتصل برؤية القدماء من إسرائيل وبخاصة رؤية أورؤيا حزقيل — الواقع أنها تذكر في موضع على أنها رؤية ، وأخرى على أنها رؤيا ، لكن الأرجح أن تسمى مكاشفة أو رؤية حقيقية .

إن ابن ميمون يستعرض النص مدققاً في كل لفظة ، فهو يذكر عبارة « لقد رأوا إله إسرائيل وتحت قدميه كما لو كان طوار من الياقوت الأزرق » (٢) ثم يلجأ إلى شرح الزرقة هنا بأنها تعني البياض الخاص بالياقوت

(١) The Symbolism of Colours in Jewish mysticism.

(٢) نص الكلمات الواردة في سفر الخروج / ٢٤ : ١١٩ هو « ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة » .

– أي الشفافية – . ولكي يزيل أثر التشبيه أو التجسيم بقدر الإمكان فهو يستشهد بالترجمة الآرامية القديمة – التي ترجمها أونكلوس – « تحت قدمه » بالإفراد لا بالتثنية ثم يجعل ضمير الغائب لا يعود على الله سبحانه بل يعود إلى الطوار أو العرش أي وتحت قدم العرش أو الطوار يظهر نور يسمى نور السكينة ، وهذا النور في حد ذاته نور مخلوق « يُظهر الخالق المنزه مجده فيه كبريق الضوء » .

ويذكرنا هذا المسلك في تحديد مرجع الضمير بما سلكه بعض علمائنا نحو الأثر اليهودي الذي ورد في بعض كتب التراث على أنه حديث نبوي – ولعل هؤلاء العلماء خافوا أن يكون هذا فعلاً حديثاً – وإن يكن ضعيفاً – فرأوا أن الأسلم تفسيره وتأويله بما لا يتعارض مع العقيدة وهذا الأثر هو « خلق الله آدم على صورته » فجعلوا الضمير يرجع إلى أقرب مذكور وهو آدم ليكون المعنى أنه سبحانه خلقه من البدء على الصورة التي هو عليها هو وذريته ، مما يسد الباب أمام الادعاءات المتعلقة بمشكلات نظرية التطور . وإذا سهل أن يسلك هذا السبيل في مثل هذا النص ، فكيف يمكن أن يؤول النص الذي يذكر أن الله « خلق آدم على صورة الرحمن » ؟

نعتقد أن مثل هذا النص لا يمكن أن يكون إلا يهودي المصدر ، ولسنا نرفضه لمجرد وروده في التوراة ، فإن كثيراً مما ورد في التوراة قد يتفق معه الإسلام ، ولكننا نرفضه لأنه يخل بالعقيدة ويتعارض أساساً مع قوله تعالى : **(ليس كمثله شيءٌ ، وهو السميع البصير)** (١) .

والنص كما ورد في التوراة في سفر التكوين (٢) لا يحتمل تأويلاً بل هو يؤكد صراحة شبه الإنسان أو المخلوق بالله الخالق . ونصه :

« وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا ، كشبهنا ، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء . . . . . . فخلق الله الإنسان على صورته ، على صورة الله خلقه » (٢) .

(١) الأنعام / ١٠٣ (٢) الاصحاح الأول / ٣٦ – ٣٨ .

ثم تذكر التوراة بعد ذلك في الإصحاح الثالث من سفر التكوين :
« وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر ، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد » (١) .

فالتوراة هنا تتحدث عن الله – تعالى عما يتخرص المجترىء – وكأنه يخشى منافسة آدم وغلبته إياه على الخلود ، بل إن عبارة التوراة في حد ذاتها تخل بعقيدة التوحيد تماماً فهي تعرض الألوهية وكأنها في مقام التعدد « كواحد منا » وكأنها مجموعة آلهة وليس إلهاً واحداً .

على أن ابن ميمون لم يقتصر على اللجوء إلى صرف الضمير إلى العرش أو المنصة بل إنه لجأ أيضاً إلى تأ يل العرش المجيد تأويلاً تفصيلياً عند شرحه للمركبة التي رآها حزقيل وأسماها المركبة الإلهية (٢) . لكن أهم نقطة في فكر « ابن ميمون » إزاء تأويله للياقوت الخاص بأسفل العرش هي محاولته شرح ذلك في ضوء الفلسفة الأرسطية ، وهو يفعل ذلك في دهاء وذكاء . وقد اعتمد في ذلك على منطوق العبارة « شيء ما يشبه نور الياقوت « العبرية كمعاسب » فهو يرى أنه ليس المقصود تأكيد اللون وحده ، وإلا لكانت العبارة « مثل لون الياقوت » إن العبارة « شيء ما يشبه أو يماثل » قد أضيفت ليؤكد أن الشيء المادي أو المادة سلبية بطبيعتها وهي تقبل الإيجابية بصورة عارضة . وإذن فنحن أمام المادة أو الهيولى الأرسطية التي لا تتخذ شكلاً أو كياناً إلا إذا انطبعت فيها الصورة . والصورة بطبيعتها إيجابية لأنها تكسب الهيولى هيئتها ونشاطها . ونحن نعلم أن الصورة قد تصبح سلبية بالعرض كما هو واضح من طبيعيات أرسطو .

إن إبن ميمون يرى أنه لهذا السبب استعمل الكتاب المقدس عبارة « شيء ما يشبه أو يماثل » مشيراً إلى المادة الأصلية أو الهيولى – بقدر ما هي مخلوقة لله . وأما بالنسبة لعبارة بياض الياقوت فإن ذلك يعني الشفافية وليس

---

(١) ٢٢ .   (٢) جـ ٣ فصل ٢ .

البياض المعهود — وفي هذا النص يفهم ابن ميمون كلمة سفير ياقوت بمعى « كريستال » وهو يستعمل المعنى العربي للكلمة .

إن بياض الكريستال لا يأتي من لونه الأبيض بل من شفافيته ، والشفافية على أية حال ليس لها لون كما هو واضح من عالم الطبيعة ، ولو كان ملوناً لما أمكن أن يقبل كل الألوان ويجعلها مرئية محسوسة . ولذلك يقال بكل دقة : إنه بسبب كون الشفافية لا لون لها ، فهي تقبل كل الألوان الأخرى تباعاً .

والجسم الشفاف يشبه المادة الأصلية لأنه بطبيعته فاقد للصورة ، وبالتالي فهو قادر على تلقي كل الصور ، واحدة تلو الأخرى .

ويختم ابن ميمون استنتاجه بتأكيد أن قدماء إسرائيل إنما كانوا يتخيلون أو يتصورون المادة الأصلية وعلاقتها بالله بقدر ما تكون الأولى بين الأشياء المخلوقة ، وهي لذلك بالضرورة معرضة للكون والفساد — والله — جل جلاله هو خالقها .

إن من الصحيح القول بأنه بالرغم من الجهود المبذولة في الفلسفة اليهودية لتأكيد تنزيه الله وعلوه فإن الاتجاه القبالي والتيار الأشراقي كان غلاّباً من حيث انطلاقه في ميدان الرمزية المتعلقة بالألوان . هذه الرمزية التي رأت في الخلق نبضات الحياة المستكنة في الألوهية ذاتها . وبهذه الطريقة أرست قواعد التأمل الإشراقي في الأطوار والأحداث والآثار التي توضح جوانب هذه الحياة الإلهية . ولقد شمل التأمل أيضاً الجوانب الطبيعية للخلق ، وبعبارة موجزة ومركزة شملت رمزية اللون الخالق والمخلوق أو الله والعالم .

فإذا كانت الفلسفة اليهودية قد ألحت ، بل وبالغت في جانب التنزيه التجريدي لدرجة كادت تدنيها تماماً من أرسطو ، فإن التأمل الإشراقي تحدث عن تجلي الله عبر الرموز ، وهنا نجد أن هذا النمط من التأمل قد تبنى نظرية الفيض والصدور كما تركها أفلوطين وتراث الأفلاطونية المحدثة .

— صحيح أن بعض الفلاسفة المسلمين قد تبنوا نظرية الفيض والعقول العشرة وحاولوا إلباسها زياً إسلامياً من الكلمات والمصطلحات ، ولكن هذا التيار الإشراقي والقبّالي في اليهودية كان أوغل في استخدام الرموز ثم استخدام الألوان بصورة خاصة باعتبار سريان الحياة الإلهية ودوام عملها في الخلق ، وهذا ما يفرقها عن اتجاه فلاسفة الإسلام نوعاً ما .

إن هذا الأمر يظهر بوضوح إذا ما روعي التقابل الحاد بين الأساس الذي اعتمدت عليه الفلسفة اليهودية ، والأساس الرمزي الذي اعتمدت عليه المناهج القبّالية الإشراقية التي رأت في الاتجاه العقلي الصرف جفافاً وجفاء وخواء من النبض والحرارة ، لكنها أسرفت في هذا الجانب حتى أحالت المعطيات الدينية إلى رمزية كهنوتية وأحجية مغلقة مما ساعد على بروز جماعات منشقة ومتطرفة نحسبها في غالب الظن واضعة بذور الانحراف والشبهات في ميدان الفكر الإسلامي ،ومغذية لهذه الاتجاهات لدى الفرق التي حادت عن الجادة .

إننا نجد في هذا التأمل القبّالي والإشراقي كيفية استعراض قدرة الحياة الإلهية وتمثلها حتى في أكثر الكائنات مادية أو حسية ؛ وهذا هو نطاق عالم الأفلاك الذي ينتهي في ذاته إلى الإله — سبحانه ، وهذه الأفلاك — في حقيقة الرأي القبّالي تخلق حياتها الخاصة ولكنها تتضمن هذه القوانين وأوجه الانسجام والتناسق التي تكرر في الكون ، مشكلة في النهاية توازن الانسجام والإيقاع ، ولهذا كان من الطبيعي في مثل هذا النمط من التأمل أن تلعب الألوان أيضاً دوراً هاماً في وصف تطورات ونُظم السير في عالم الأفلاك أو السيفروث والعقول .

حقاً لقد دخلت الألوان النظام الرمزي للقبّاليين وقدر لها أن تتطور في قوة بالغة التأثير في القرن الثالث عشر .

نظـــام العقـــول والأفـــلاك والقـــوى
ورمزية الألوان في الفكر القبّالي

إن عالم القوى أو الصفات والعقول في الفكر القبّالي يمثل في الحقيقة الطاقة الأولية أو القوى الأصلية ، وليس تصوراً عقلياً صرفاً . بل هو ثمرة التأمل والحدس الذي اقترن بأفكار وأساطير قديمة تطورت نتيجة للتأويل . ولهذا نجد في هذا العالم أو النطاق شيئاً من الهلامية والغموض وعدم التحدد ، وقد اعتاد الدارسون أن يستعينوا في فهم هذا التصور القبّالي ورمزية اللون فيه بالتصورات الإشراقية .

إن هذه القوة أو الطاقة الأولية يمكن النظر إليها وفهمها من جوانب مختلفة ومن هنا نجد أن الدوافع المختلفة ، بل المتناقضة أحياناً تظهر في أنماط هذه الطاقة أو القوة . ولا يمكن فهم مثل هذا النظام إلا بذكر البنية الأساسية التي يشاد عليها هذا التصور القبّالي برمته .

في هذه البنية نجد أن الله ــ جل جلاله ــ في تعاليه وتنزهه وفي وجوده وحقيقته المكنونة عن الأفهام ــ لا يمكن أن يظهر على الحقيقة كما لا يمكن أن يفهم عن طريق المثال والصورة . ويطلق القباليون على لفظ الجلالة بهذه الصفة « أن سوف » أي ذلك أو اللامتناهي .

وهذا المصطلح ــ اللا متناهي ــ قد استعمله القبّاليون ليشيروا به إلى ما لا يمكن تسميته أو تحديده بالنسبة للذات الإلهية .

وبناءً على التصور القبّالي فمن الله ــ تعالى وعز اسمه ــ فاضت القوى ــ الموازية للعقول في التصور الأفلوطيني ــ وهي ليست صفات أساسية لله في علاقته بخلقه ولكنها قواه الفعالة ، بل هي أيضاً مواضع النور الإلهي . إنها

تمثل القوى الإبداعية النابعة منه لتعمل في الخلق ، وكما يقول القباليون إنها القوى الحاسمة التي تدل على أن الحيّ يخرج من سريته وخفاء وجوده ليتجلى وليظهر ذاته .

وهنا لا مفر من القول بأن القباليين هنا يقعون إن طوعاً وإن كرهاً في وحدة الوجود ، كما يقعون في تناقض صارخ حين يذكرون أن عالم القوى أو السيفروث ليس مخلوقاً لله ، بل هو التنوع والاختلاف الذي تضمه الوحدة الدينامية لحياته . إنهم يرون تألفه من ثلاث مجموعات ثلاثية ومن قوة واحدة شاملة . وفي التسلسل المعروف يدق التفصيل لهذه الثلاثيات وهذا التسلسل ليس موضع اهتمامنا هنا إلا من حيث اعتبار التثليث فيه مصدر إيحاء للتثليث المسيحي ولرأي المسيحيين في الكلمة وسنعالج ذلك بالتفصيل في سياق آخر .

إن من الأهمية بمكان أن نذكر أنه بالرغم من كون العرض الموجز للبناء السيفروثي أو العقلي لدى القبالة أمراً حيوياً فإن هناك أوصافاً أخرى لدى قبالة أسبانيا (١) تتجاهل هذا البناء وتتناول صدور الكثرة مباشرة من الأنوار العقلية دون أن ترى في ذلك الصعوبة التي صادفها مثلاً أفلوطين عند بحثه لكيفية صدور الكثرة عن الواحد . فقد رأى أن ذلك يتناقض مع المبدأ الفلسفي الذي ظن أنه يكاد يكون بدهياً ، وهو ذلك المبدأ الذي ينص على أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد .

إن الملفت للنظر حقاً هو أن كثيراً من المؤلفات القبالية في مطلع القرن الثالث عشر يذكر أن الواحد يوحد في ذاته كل قواه كما يتوحد لهب النار بكافة ألوانه ، وتفيض قواه من خلال وحدته كما يظهر نور العين من سوادها ، وهذا مما يذكرنا بفكرة جالن التي كانت ذائعة الشهرة في القرون الوسطى وهي أن الضوء ينفذ خارجاً من العقل من خلال العين .

إننا نجد تطبيق رمزية الألوان على القوى والصفات المختلفة التي تمثل عالم الفعالية والعقول . وتسير الألوان جنباً إلى جنب مع الأنوار والأضواء

(١) Qubbalesties of Spain.

المختلفة لهذه القوى التي لا تقتصر على كونها قوى مجردة بل تضم في رمزيتها أشكالاً وكيانات محسوسة .

وفي هذا التصور يتحدث عن مصدر الحكمة وهي ما يطابق وصف العقل أو القوة الأولى التي تنتشر من مصدرين : واحد للظلام والآخر للنور وهو الأثير أو الوسط الأصلي الذي يفيض بعد ذلك متنزلا ومظهراً ألواناً متعددة تفصيلاتها غير واضحة بالمرة .

لكن الألوان الخاصة بهذين المصدرين – ولعلهما رمزان لقدرة الله ورحمته – كما يزعم بعض المعلقين – هذه الألوان كانت في الأصل الأحمر والأبيض ، ولكن تميزت مؤخراً إلى خمسة ألوان ثم تطورت بعد ذلك إلى استعراض لا يتناهى للألوان .

إن الغريب العجيب حقاً في مثل هذا التصور أن تجد أن مصدر الظلمة مثلاً لا ينظر إليه على أنه غموض متجانس بل ينظر إليه كخليط أو مزيج من ألوان الأخضر والأزرق والأبيض وفي عبارة ملغزة توصف الظلمة بأنها النور الذي أصبح معتماً للغاية حتى إنه لا يلمع ! ! !

وهنا يلح القباليون على هذه الفكرة وهذا التعريف الذي يبدو متناقضاً في أساسه ، ويحاولون أن يزيلوا شيئاً من غموضه بما يقدمون من تفسيرات وتعليلات ، فالظلمة قد تعني تمام النور والضياء وإفعامه وغلبته على العين حتى يعميها . ومعنى ذلك أن مثل هذا النور يسمى ظلمة لا لأنه مظلم حقيقة ، بل لأنه ليس لمخلوق سواء كان ملكاً أو نبياً أن يعمد له أو يدركه . وهذا الوصف للظلام عند القباليين يوازي تماماً وصفهم للحدود التي تصل إليها معرفة الخـــلائق .

وهنا تقع القبالة مرة أخرى في تناقض فكري حين تطلق على الألوهية لفظ اللانهائية أو اللاشيئية مع إدراكها لصعوبة تصور تحقق اللانهائية بالفعل ومع ذلك فهي تؤكد بأنها أكثر تحققاً من أية حقيقة أخرى ، والواقع أن

شراح القبالة في نهاية القرن الثالث عشر استمدوا رمزية النور المستخدمة في مثل هذا الشرح من الجمل الأولى التي تضمنها كتاب « الزهر » في تفسيره لأول كلمة في الكتاب المقدس تفسيراً ثيوسوفيا أو إشراقياً وهي كلمة في البدء أو كما يقولون « ميلاد نقطة البدء والأصل وقد تصورها كتاب « الزهر » كرمز للحكمة الإلهية ويحكي النقاد أنها كتبت في عهد سليمان بالآرامية بصورة جريئة هـــكذا .

« في البدء (١) عندما بدأت إرادة الملك أن تفعل ، حضر بنفسه خارج الدائرة السماوية (وهو الأثير الذي أحاط به) واندلع لهب قاتم ومظلم من أعمق أعماق السر الخاص باللامتناهي كالضباب الذي ينبثق من اللامعيّن واللامتحدد . وقد أحاطت به دارة من هذا الهباء الروحي الذي ليس بأبيض ولا أسود ولا أخضر ، بل خال من كل الألوان ، وعندما أخذ هذا اللهب شكلاً وانبساطاً ، انتشر على هيئة ألوان براقة (٢) .

وفي نصوص قبالية كثيرة ومطولة تعالج رمزية الألوان جنباً إلى جنب مع رمزية الأنوار وتدرجاتها ، لكن الذي يلفت النظر في مثل هذه التصورات أن هناك مزيجاً من الفكر الأرسطي والتأمل الإشراقي والخيال الأسطوري والنسق الشعري في عالم العقول والقوى المعروض على النمط الأفلوطيني في شكله العام . وإن كان كل ميدان أو مجال من مجالات هذه القوى والعقول والأفلاك تحمل خصائص أخرى هي من حشو شراح ومتأملي القبالة ، مستمد من أنماط مختلفة ومتباعدة من التراث البشري .

فالسفرا الأولى أو العقل مثلاً تحمل كل التفريعات والتمييزات ويشار إليها بالمرآة التي لا لون فيها ولا صورة ، ومع ذلك تعكس كل أنواع الألوان والصور .

---

(١) الإشارة إلى أول كلمة في سفر التكوين وهي « في البدء خلق الله السماوات والأرض / ١ / ١

(٢) ويشبه هذا ما ورد في الفكر المصري القـــديم انظر

James H. Brcasted,

Delopment of Religions and thought in Egypt.

وهذا التشبيه بالمرآة يجعلنا نفكر في تشبيهات ومقارنات أخرى وجدت في أنماط من التراث الشرقي والغربي على السواء .

فالهيولى أو المادة الأصلية مثلاً — وهي من التراث اليوناني — ليست لها صورة ومع ذلك فهي تحمل وتظهر كل الصور وهكذا في هذا العالم — عالم السفرا الأولى الذي لا لون له يوجد النور المخبوء الذي لا لون له باعتباره نوعاً من الهيولى والأصل لكل القوى والعقول المستمدة منه .

ولابد أن يذكر المرء أنه في هذا النظام الثيوسوفي — وبخاصة في العهود المتأخرة — نجد أن اللون الأسود قد أُستعير ليشير إلى السبب الأول أو الأعظم . والاصطلاح الأول اصطلاح أرسطي كما هو معلوم . ويتأكد ذلك مما سبق ذكره من أن العقل الأول أو القوة العظمى الأولى لم يخلقها الله في زعم هذا التصور — ولا ندري كيف احتفظ هؤلاء باللون الأسود ليشير لكمال النور اللانهائي لهذا السبب الأول ، اللهم إلا أن يؤكدوا بذلك خفاء السر الإلهي وتأبيه على الإدراك ، أو إعشائه العين وحملها على الغمض لشدة الضياء كما سبق .(١)

إننا لا نريد الاسترسال في سرد التصورات المختلفة لعالم الأرواح والأشباح بالتفصيل وبتحديد مراتب هذه الكائنات من الأنوار ؛ فذلك موضوع بحث آخر ندرس فيه العلاقة بين المجوسية والفرق اليهودية المختلفة في هذا القسم الميتافيزيقي والفيزيقي الهام .

غير أننا لابد أن نشير إلى ارتباط هذه القوى والأفلاك بألوان محددة يهمنا منها حقيقة ما يشار فيه إلى « الخلا » (توهو) الوارد في سفر التكوين كشريط أو حزام أخضر محيط بالأرض .

---

(١) انظر في تفاصيل ذلك : Judaism : the Discovery of God. ضمن كتاب John Noss بعنوان Man's Religions. pp. 489 ff. .

الألون ونظرية الخلـــق المأثورة :

لقد وضع التفسير الثيوسوفي للخلق وللتكوين تصوراً للمنبع الأول الذي انبثقت منه سائر القوى والعقول على أنه الحكمة والقدر ، ومنهما برزت كل الحقائق للمرة الأولى من المجال الروحي (كما انبثق من العمار والاضطراب في قصة الخلق المشهورة الواردة في سفر التكوين (١) .

لكن الخطير في الأمر أن نلاحظ أن القوة الأولى والعقل الأول وهي السيفرا العليا بالنسبة لمصدرها في الألوهية توصف بالسواد على حين أنها في ذاتها لا لون لهـــا ، وأما بالنظر إلى ظهورها وتجليها فيما هو أدنى منها فهي في أعلى درجة في البياض .

إن هذه الرمزية الأخيرة — رمزية البياض — ترجع في الحقيقة إلى الأوصاف المتجرئة على الله — سبحانه — الواردة في الزهر حيث توصف أسمى صورة للألوهية الكاشفة عن ذاتها بأنها « بيضاء الرأس » بناءً على مشاهدة دانيال .

وقد يفسر تطابق اللون الأول مع العقل والفلك الأول في ضوء التصور الأرسطي الذي كان معروفاً لدى هؤلاء . هذا التصور الذي كان يذهب إلى أن كل الألوان في العالم إنما يتضمنها ويحويها اللون الأبيض. وكما يقول بعضهم فعـلاً : « إن أصل الألوان كلها هو الأبيض ، ونهايتها هو الأسود) (٢) .

وغني عن البيان هنا هذا الدور التجسيمي والتشبيهي المخل بتنزه الإله الذي لعبته رمزية الألوان وبخاصة عندما وصف الرأس الأبيض بأجزائه التشريحية المختلفة .

ويتفق كل القباليين تقريباً على القول بأن لطف الله يرمز إليه باللون

(١) The Symbolism of Colours in Jewish mysticism.

(٢) وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه القمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه (سفر التكوين / ١ / ٢ ، ٣) .

الأبيض ، في حين أن جبروته يرمز إليه باللون الأحمر ، وتركيبهما إذا أدركا في ضوء الرحمة يرمز إليه بالمزج بين هذين اللونين ، وأحياناً يرمز إليه باللون الأرجواني أو بالأخضر .

إن هذه الألوان تظهر في أقدم النصوص القبالية — كما في سفر البحر فقد وردت حيث توجد مساءلة في الخمر واللبن : ماذا يعمل كل منهما مع الآخر ؟ وقد أخذ هذا على أن الخمر رمز للجبروت أو الخوف وأن اللبن رمز للحب أو الرحمة أو الفضل »(١) .

ثم يناقش حكمة تقديم الخمر على اللبن وبأن ذلك الترتيب مراعى فيه القرب منا لا من المصدر الأعلى(٢) . ولا شك أنه في الخمر واللبن يراعى فيهما اللون الأحمر واللون الأبيض وهذا قد يتفق مع رمزية الفضة والذهب اللذين ينسبان أحياناً إلى هاتين القوتين — الرحمة والجبروت .

على أن بعض النقاد والمؤرخين يرون أن صفة الفضل والرحمة تكون في بعض الأحيان بكل بساطة بيضاء ، وأحياناً أخرى تكون بيضاء مشوبة بزرقة بقدر ما ينتشر اللطف خارجاً .

والواقع أن القباليين يتوغلون حقاً في الاصطلاحات الكيمائية لهذه المعادن وسبكها وصياغتها وتغير مراتب الألوان تبعاً لذلك .

فالأحمر القاني والقاتم الذي يكاد يبصر أسود أو أزرق يرمز إلى شدة القضاء والحكم أو الانتقام ، أما إذا كانت الأعمـــال أخف فإن الأحمر المصفر أو المخفف الباهت يحل محله .

(١) في المحيط الإسلامي يذكر في حديث الإسراء والمعراج ما عرض على الرسول الكريم من خمر وماء ولبن وأنه صلوات الله عليه قد اختار اللبن فقال له جبريل : لقد أصبت الفطرة . فإذا صح أن يكون الخمر رمز الجبروت واللبن رمز اللطف والرحمة — فليس المقصود هنا مجرد اللون بل ؛ الماهيةوسنعود إلى هذه النقطة في الفقرات التالية . إلا أن الموقف اليهودي يتناقض مع الموقف الإسلامي .

(٢) ومعنى ذلك أن الخمر أقرب إلى الله من اللبن — وهذا ما يتناقض مع النظرة الإسلامية فإن اللبن يشير إلى الفطرة والفطرة ولا شك هي فطرة الله التي فطر الناس عليها .

وتصل أنماط الدمج المختلفة للذهب إلى سبعة أنواع كما ينص التراث التلمودي ، غير أن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو :

لمـــاذا يعتبر الذهب – وهو أنفس معدن في عالمنا – في فلك ومستوى أدون من الفضة التي تمثل اللطف والرحمة والفضل ؟

يجيب على ذلك بعض الشراح بما ينم عن تكلف عميق في التأمل المبني على التصور الثيوسوفي والصوفي في تحويل الكيمائيين المعادن إلى ذهب خالص. صحيح أن الذهب الصوفي الخالص هنا يعتبر أغلى من الفضة لأنه ينتمي إلى فلك أعلى (بناه) الذي هو « الخوف المطلق من جبروت الله » وهذا كما يقولون هو الذهب الذي يلمع ويأخذ سناه بالأبصار .

وكما يذكر دانيال يخاطب حاضريه « أنتم رأس الذهب ، ولكن عندما تصبح الفضة كاملة تامة ، عندئذ يتضمنها الذهب »(١) ويريد بالمعاناة والانصهار والصقل والممارسة .

وينشأ النحاس أيضاً عن الذهب الذي تنحدر قيمته وهذا هو اليد اليسرى في الكشف والرؤيا التي وقعت لدانيال » .

وإذن فهناك ذهب مخبوء وهو الذهب الثيوسوفي أو الأعلى الروحي وهو سر مخبوء ولهذا يسمى في الكتاب المقدس « بالذهب المخبوء الذي لا تستطيع عين أرضية رؤيته ، بينما تستطيع أن ترى الذهب الأدون »(٢) .

« إن كل أحمر أو أسود – كما يقول إسحق بن يعقوب كوهين – يشير إلى صفة الجبروت الحادة ، وكل أبيض يشير إلى الرحمة .

الألوان والعادات في اليهودية :

لقـــد سبقت الإشارة في غضون هذا البحث إلى حقيقة ارتباط اللون الأبيض بالطهارة والنقاء ، أو بالصلاح والتقوى ، وقد ذهب التراث

(١) دانيال ٢ / ٣٨ .   (٢) الملوك ٦ / ١٢٠ .

اليهودي في هذا السبيل شوطاً بعيداً حين أورد أن تجلى الله يوم القيامة وظهوره للخلق إنما يظلل بنور أبيض ، ومن النور الأبيض ظهر أصل كل الألوان الأخرى .

ظهر أصل كل الألوان الأخرى :

حقاً لقد ورد في هذا التراث أيضاً أن ثياب المبعوثين بعد الموت إما أن تكون بيضاء أو سوداء حسب ما يستحقون . وإننا لنطالع وصية أحد المعلمين والأحبار لأولاده قبيل وفاته بقوله « لا تدفنوني في ثياب بيض ولا في ثياب سود . أما عدم دفني في ثياب بيض فلعلى لا أجد نفسي خليقاً بالمثوبة والمغفرة فأكون كالعروس بين أصحاب مأتم ، وأما عدم دفني في ثياب سود ، فربما وَجِدْتُ أملاً لأن أكون بين الصالحين المنعمين فأصير بهذا الثوب الأسود بينهم كالمحتدة والثكلى بين العرائس . أولى أن تدفنوني في ثياب حمر أي في ثياب مختلطة الألوان .

وإننا لنجد في التلمود الفلسطيني نفس القصة ولكن بإضافة هامة لأحد تلاميذ ذلك المعلم وهي أنه قد أمر أن يدفن في ثياب بيض فلما قيل له : إن معلمك قد قال شيئاً مخالفاً لما قلت ، أجاب بقوله « ولماذا أخجل من أعمالي (١) ؟

كما نجد استمرار اعتبار اللون الأبيض رمزاً للقبول والمغفرة حتى في وصف « الزهر » للأحداث في يوم الفداء والصلاة الكبرى عندما يقف الكاهن الأعظم أمام قدس الأقداس لينال العفو والمغفرة لذنوب إسرائيل ، فإنه وجد نفسه – كما يقال – موصولاً بالعالم الخارجي بواسطة سلك ذهبي اللون ، فإذا أصبح هذا السلك أبيض فإن ذلك يكون أمارة على أن دعاء القسيس وصلاته قد قبلا . وإذا لم يتغير السلك إلى البياض فإن ذلك يكون دلالة على أن القسيس نفسه مذنب ، ولم تقبل صلاته أو دعاؤه .

(١) انظر Symbolism of Colours in Jewish mysticism P. 39.

تأثير الحركة الصفاوية الدينيـــة :

إن بعض الدارسين(١) للتراث اليهودي يذكرون أنه في خلال القرن السادس عشر ظهرت عادة وذاعت بتأثير الحركة الصفاوية الدينية بالنسبة لما نحن فيه من رمزية اللون الأبيض . فقد حملت القباليين على لبس الثياب البيضاء أو المبيضة في السبات ، وقد أُشير إلى هذه العادة في كثير من المؤلفات المعاصرة .

وقد يتساءل الباحثون ، بل ويعجبون لأن تفسير وتعليل رمز البياض في الثياب لم ينسب إلى الفلك « كسد »(٢) المشهور بهذه السمة تعبيراً عن رحمة الله . والواقع أن ذلك في التراث اليهودي مرتبط — فيما يرجح الرواه — بعادة علم من أعلام الأحبار والقادة الكبار وهو « تنا يهوذا بن الاي الذي كان يتمثل لحوارييه دائماً وهو يلبس ثياباً تجعله شبيهاً بملك من ملائكة الله(٣) . ومما قد يرشح هذا ما نجده بين الحين والحين من الحديث عن الثياب النورية الملائكية البيضاء التي يشار إليها في التراث الخاص بالملائكة .

وقد حاول بعد الكتاب أن يمنح هذه العادة إسناداً روحياً أقوى ليجعلها محببة إلى النفوس وييسر الالتزام بها ، وتصبح وصية يلبس الثياب البيض يوم السبت . وقد نسب هذا الإسناد مبدئياً إلى إسحق لورياس الذي منح هذه العادة أساساً ثيوثوفيا ، على حين أنه قد أقحم النص الخاص بهذه التوصية في الزهر خطأ . وقد يذكر بعض المؤرخين في محاولة أُخرى لربط هذه العادة بالقديم الروحي أن هناك من كان يلبس الحرير الأبيض (الأطلس) خلال مواعظ سليمان . وكأنه يستحضر بهذا الزي ا لجو الروحي القـــديم .

ولعل من الغريب أن يزعم الدارسون أن الجهـــود التي بذلت في سبيل تأويل رمزية الثياب البيضاء جعلتها محببة إلى النفوس منذ القرن السادس عشر ،

---

(١) مثل شنن S. Shonion

(٢) حسب نظرية الفيض والصدور .

(٣) تختلط هذه الرؤية بالرؤيا ويجمعها المكاشفة .

وقد عشقها المسلمون منذ ذلك التاريخ . ونقول إن ذلك غريب حقاً لأن المسلمين قد تلقوا توصية نبيهم بلبس الثياب البيض استحباباً يوم الجمعة قبل هذا التاريخ الذي حدده هؤلاء بما يزيد على ثمانية قرون — فكيف يقال إذن إنهم أخذوا أو استمدوا هذه العادة التي حببت إليهم منذ القرن السادس عشر من اليهود ؟ .

إن ارتباط اللون الأبيض — على وجه العموم — بالنقاء والصفاء والطهارة وما ينسجم مع كل ذلك كالملائكة والسماوات يبدو أنه أمر قديم يلائم الذوق والفطرة ، ولعل تعليق جبريل — عليه السلام — على اختيار نبينا — ﷺ — اللبن حين عرض عليه مع الخمر يفيد في هذا الصدد كما ورد في الأثر إذ قال له : أصبت الفطرة (١) .

ولا مانع من التماثل لوحدة المصدر أو لأحقيته ، فالملائكة مثلاً في التراث البشري — دون استثناء تقريباً — ورد ذكرها مرتبطاً بالبياض (٢) ، وبالأجنحة (٣) ، وقد ورد في السنة النبوية وصف البياض ، وورد في القرآن الكريم الوصف بالأجنحة .

---

(١) في حـــديث الإسراء والمعراج .
(٢) في حـــديث شق الصدر .
(٣) في أول سورة فاطر .

الألوان في الإسلام

إذا كنا قد لاحظنا في دراستنا السابقة أن مصطلح « اللون » نفسه أي وجود اللفظة الدالة على مطلق الوصف بالتلون ـ لا توجد في التوراة ، فإننا نلاحظ أن القرآن الكريم قد أورد مصطلح « اللون » مفرداً ومجموعاً . كما نلاحظ أن هذا المصطلح يشمل في إطلاقه الدوائر الكونية من إنسان وحيوان وجماد ونبات ، بل إن في السنة النبوية ما يلخص أثر التلوين والألوان ونسبته إلى الخالق – عز شأنه – كما سيلي من دراسة . غير أن من أهم ما ينبغي أن نشير إليه هو أن استعمال هذا اللفظ « اللون » أو جمعه « الألوان » لا ترتبط قط بشيء من الصفات أو الذات الإلهية كما رأينا في الجانب اليهودي ، إنها لا تتعدى نطاق الكائنات سواء أكانت كائنات سماوية أو كائنات أرضية أو ظواهر طبيعية في عمومها وخصوصها .

وقد استخدمت الألوان المحددة كالأبيض والأحمر والأزرق والأصفر في مجالات الوصف الواقعي لما هو كائن ، أو في مجالات الوصف لما سيكون من أمور الآخرة وقضايا الثواب والعقاب والجنة أو النار . وعلى ذلك ففلسفة استخدام الألوان في الإسلام – كما يشهد كتابه وسنة نبيه – صلوات الله وسلامه عليه – هو تحديد الموصوف وتعيين هويته وملامحه كما هو في الواقع بالنسبة للمحسوس ، وتقريب المفهوم وتجسيده لما عسى أن يخفي من حقائق إذا تعلق الأمر بما لا يقع تحت الحس أو ما يخرج عن نطاق هذه الحياة الدنيا . على أنه يجب ألا ننسى أن الفكرة الأساسية في الإسلام بالنسبة للآخرة – وبخاصة فيما يتعلق بأشياء الجنة ومتعها – هي أنه إذا عبر عنها بألفاظنا أو الأسماء التي درجنا على استعمالها فينبغي أن نضع في اعتبارنا أن التشابه إنما يقع في الأسماء فحسب ، أما المسميات فلا يمكن أن تتشابه مع ما في

الدنيا لأن نبي الإسلام أكد أن في الجنة « ما لا عين رأت ، ولا أُذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » ومقتضى فهم هذا الإعلان النبوي أنه حتى في مجال الألوان لا تتشابه الألوان في الدنيا مع الألوان في الآخرة ؛ وسنلاحظ ذلك في تعليقات كثير من المفسرين والعلماء .

فإذا قيل : إذا صح ألا تناظر بين ألوان الدنيا والألون في الآخرة فلم وقع الوصف بها إذن ، وهي لا تنقل الصورة الحقيقية لأشياء الآخرة ؟، أُجيب بأن الحكمة في ذلك هي مراعاة أقصى الطاقة البشرية للتصور ومراعاة استخدام الانطباع العام لمثل هذه الألوان على الأنفس البشرية وهو المراد . ولا ينبغي أن يفهم من ذلك أن الألوان في الآخرة ليست حقيقية على هذا الزعم ، بل يجب أن يفهم أن الألوان في الآخرة هي الألوان الحقيقية التي تثير الإمتاع وزيادته في الجنة والهلع والإحساس بتفاقم الألم في النار . وبعبارة مبسطة : إذا قيل مثلاً إن كأس الشراب في الجنة بيضاء فلا ينبغي أن يفهم من هذا ، البياض المعهود الذي يماثل بياض الجبس أو القطن ، بل هو بياض مخصوص لا تفي بوصفه عبارة ؛ لكن الكلمة بيضاء مازالت تؤدي غايتها من إثارة الرغبة والميل والارتياح إلى النقاء والصفاء والطهارة — وهو المقصود .

ورود مصطلح اللون والألوان في القــرآن :

ترد كلمة « لون » مفردة في سورة البقرة في قوله تعالى : **(قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ، قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين)** (١) . ولعل القاريء يلاحظ الدقة القرآنية في استقصاء حقيقة اللون المراد ؛ فالمعروف أن اللون الأصفر له درجات كثيرة ، وهنا يحدد القرآن ذلك بقوله **(فاقع لونها)** وقد يظن أن الصفرة على العموم قد ترتبط بالضعف والشحوب والكلاحة ، وهنا يوصد القرآن مثل هذا الظن بقوله (تسر الناظرين) ومعلوم أن الناظر يسر بما تظهر عليه الحيوية والنضرة والصحة والنعمة .

(١) سورة البقرة الآية : ٦٩ .

ولا جدال في أن القرآن قد استرسل بعد ذلك في أوصاف أخرى لهذه البقرة نتيجة لتشدد بني إسرائيل في محاولة تنفيذ أمر نبيهم موسى عليه السلام فشدد الله عليهم كما يقول المفسرون . لقد استخدمت التوراة لفظ « حمراء » دون أن تذكر كلمة اللون وهي تريد بلا شك زيادة وتفاقم لون الصفرة فيها ،وليس الوصف «حمراء» لذلك دقيقاً كما ورد في القرآن ؛ أما ما أوردته التوراة بعد ذلك من الانطباع الذي يحدثه منظر البقرة فيمن رآها ،فيتقارب بصورة عامة مع ما ورد في القرآن الكريم . إن انفراد القرآن بهذه الدقة في تحديد درجة اللون يضاف إلى شواهد صدق رسولنا الكريم فيما بلغه عن الله عز وجل .

أما كلمة « ألوان » فيتكرر ورودها في القرآن الكريم شاملة للإنسان والنبات والجماد والحيوان كما يتضح مما يلي .

فمن الأول قوله تعالى مشيراً إلى آياته الرائعة الدالة على وحدانيته وقدرته : (ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين)(١) .

ومن الآيات التي تجمع كل ذلك في صعيد واحد ، فتؤلف بين الجماد والنبات والحيوان والإنسان قوله تعالى (: ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها . ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك . إنما يخشى الله من عباده العلماءُ إن الله عزيز غفور »(٢) .

يقول بعض المعلقين هذا تنبيه على قدرة الله وكماله في خلق الأشياء المتنوعة المختلفة عن الشيء الواحد وهو الماء ينزله من السماء ، يخرج به ثمرات مختلفا ألوانها من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض إلى غير ذلك من ألوان الثمار كما هو مشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها ، ومن الجبال

(١) الروم : ٢٢ .

(١) فاطر الآيتان : ٢٧ ، ٢٨ .

خلق البيض والحمر وفي بعضها طرائق مختلفة الألوان كذلك،ومنها غرابيب سود . قال عكرمة : الغرابيب:الجبال الطوال السود . قال ابن جرير إن العرب إذا وصفوا الأسود بكثر السواد قالوا أسود غربيب – ومعنى ذلك أن هنا تقديماً وتأخيراً،والتقدير سود غرابيب . ونلاحظ أن ابن كثير يرى أن في هذا القول نظراً؛لكنه لم يوضح مبررات هذا النظر ، ولعله يريد أن كلمة سود بعد قوله غرابيب أفادت خلوص اللون للسواد وقتامته وشدته لأن الغرابيب قد تفيد خفيف السواد أو ما يقرب من الرمادي .

أما الناس والدواب والأنعام – وهذا من عطف الخاص على العام – فإننا نشاهد الألوان المختلفة للبشر؛فالأحباش والبربر في غاية السواد ، والصقالبة والروم في غاية البياض والعرب بين ذلك ، والهنود دون ذلك وهكذا حتى في الجنس الواحد ، بل النوع الواحد ، بل الحيوان الواحد يكون أبلق فيه من هذا اللون وذاك اللون .

وقد روى الحافظ البزار في مسنده عن ابن عباس – رضي الله عنهما – فقال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : أيصبغ ربك ؟ قال ﷺ : « نعم صبغا لا ينفض أحمر وأصفر وأبيض » ولهذا قال تعالى : **(إنما يخشى الله من عباده العلماء)** (١) .

ومن الآيات التي ترد فيها كلمة الألوان أيضاً منسوبة إلى أثر من آثار قدرة الله وشمول سلطانه قوله تعالى في إخباره عن النحل إذ قال : (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس . . » (٢) .

ومعلوم أن الشراب المختلف الألوان الذي يخرج من النحل إنما هو خلاصة الرحيق المستمد من مختلف الزهور والرياحين التي تختلف لوناً وطعماً ورائحـــة .

(١) انظر مختصر ابن كثير / ٣ / ١٤٥ .
(٢) النحـــل : ٦٨ ، ٦٩ .

ولعل من أجمع وأشمل الآيات لظاهرة الألوان وتنوعها قوله تعالى : **(وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه . إن في ذلك لآية لقوم يذكرون)** (١) .

فواضح من قوله : **(ذرأ لكم في الأرض)** أن ذلك يشمل النبات والحيوان والمعادن والجمادات وما تتصف به من مختلف الألوان .

وهكذا نرى أن مصطلح « اللون » باعتباره مصطلحاً فنياً لم يهمله القرآن، لكن القرآن الكريم لم يقتصر على مجرد الإشارة إلى هذا المصطلح مفرداً ومجموعاً وخاصاً وعاماً ، بل ضم إلى ذلك الألوان المحددة التي تصف ظواهر هذا العالم،وكثيراً من حقائق ووقائع العالم الآخر . ومعنى ذلك أن الألوان المحددة المميزة قد تناولت عالمي الشهادة والغيب وما فيهما من ظواهر أو كائنات ، سواء أكانت كائنات بشرية أو غير بشرية .

الألوان في عالم الشهادة :

لعل أول ما يخطر ببال القاريء للقرآن الكريم في أكبر سورة من سوره هو ما تتحدث عنه الآيات المتعلقة بفريضة الصوم وتحديد الحد الفاصل بينه وبين جواز الإفطار . وذلك في قوله تعالى : **(أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم ، فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر)** (٢) .

فالآية هنا تشير إلى ظاهرة كونية هي انفصال وانبثاق ضوء الصبح الأبيض عن ظلام الليل الأسود . وعبر عن ذلك بالخيط الأبيض والخيط والأسود. وقد فهم بعض الرجال الذين تمسكوا بحرفية الكلمات دون أن يراعوا التقييد

---

(١) النحل : ١٣ .

(٢) البقرة : ١٨٧ .

بقوله «من الفجر» أن المراد إمكان التمييز بين خيطين حقيقين أحدهما أبيض والآخر أسود ، حتى إن أحدهم كان ليربط في رجليه هذين الخيطين فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما . ويقال إن عبارة (من الفجر) نزلت بعد ذلك للتحديد الدقيق المراد وهو الليل والنهار . ويحكى أن عدي بن حاتم أحضر عقالين — أبيض وأسود — ووضعهما تحت وسادته وذهب إلى رسول الله — ﷺ — فقال له — صلوات الله عليه : « إن وسادك إذن لعريض » يعني بذلك الغباء . إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل .

ويأتي اللون المحدد أيضاً في معرض الحديث عن عادة جاهلية هي إبداء الكراهية والاشمئزاز لولادة الإناث ، وهنا نجد القرآن يضيف إلى محدودية اللون شيئاً إضافياً يصور الحالة النفسية التي يعانيها من يستقبل نبأ ولادة الإناث ،ويأتي ذلك في موضعين الأول في قوله تعالى : **(وإذا بشر أحدهم بالأُنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب)** (١) فالآية لم تكتف هنا بوصف الوجه بالسواد بل أضافت إليه ما يعتمل في صدر هذا الإنسان من الغيظ والكمد والإحساس بالعار والشنار حتى إنه ليتوارى عن الأعين مخافة أن تحدق فيه والإضافة دالة بلا شك على أن اللون وحده ليس بالضرورة يشير إلى الاستياء أو الامتعاض لأن السواد في حد ذاته قد يكون لوناً طبيعياً لمن اسودت بشرته من الميلاد ، أمارة من أمارات قدرة الخالق على اختلاف الألسنة والألوان كما صرح القرآن بذلك فيما سبق . أما الموضع الآخر ففي قوله تعالى : **(وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظلَّ وجهُهُ مُسوداً وهُوَ كظيمٌ)** (٢) .

وذلك لإبراز التهافت وعدم المعقولية ووضوح التناقض بين فكر هؤلاء وسلوكهم ، إذ كيف ينسبون لله ما لا يرضونه لأنفسهم ، وكان المقتضى أن يعظموا الأُنثى إذا كانوا جادين في نسبتها إلى الله ، أو ينزهوا الله سبحانه

(١) النحل : ٥٨ ، ٥٩ .
(٢) الزخرف : ١٧ .

عن أن يكون له البنات ، وعندئذ قد يفهم مبرر عدم ترحيبهم بالأُنثى .

والمهم أن نلاحظ أن اسوداد الوجه هنا من كسب الإنسان — وليس أمراً طبيعياً يُنسب إلى عمل الرحمن — ومن ثم فهو صفة ذم وأمارة لوم وعيب ، مثله في ذلك مثل اسوداد وجوه الكفار يوم القيامة ، بيد أن هذا الاسوداد بالنسبة لأبي الأُنثى يصحبه محاولة التخفي وإمكانية التواري عن الأعين ، على حين أنه في الآخرة لاوزر لأن إلى ربك المستقر .

ومن ذلك أيضاً النبات — وما أكثر الآيات التي تعالج ألوانه — ولكنا سنقتصر على ما يفيد في الدلالة على شمول القرآن للألوان لسائر الظواهر الكونية — من طبيعة ونبات وإنسان — كقوله تعالى : **(وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيءٍ فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً)**(١) .

وإذا كانت الصفرة في البقرة المذكورة آنفاً مدعاة لإدخال السرور بوضوح لونها ونضارة بدن حيوانها، فإن الصفرة تذكر أيضاً في القرآن الكريم أمارة من أمارات الذبول والفناء والدمار وبخاصة في النبات ، وذلك يأتي عندما يراد تأكيد فناء هذه الحياة الدنيا وعدم دوامها بالرغم مما قد نتمتع به من ألوان جذابة ومظاهر خداعة كقوله تعالى : **(اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاما)**(٢) .

إن السمة المميزة لاستخدام الألوان في القرآن دائماً تكمن في اتخاذها معرضاً للعبرة والإقناع بقدرة الله وإتقانه وتوحيده وأهليته وحده للعبادة والتقديس . ومعنى ذلك أن الاستخدام القرآني للألوان إنما هو للتوجيه والإرشاد والهداية والدعوة إلى اليقظة والتدبر وحسن التقدير والميزان . وقد يوضح هذه الفكرة تمام الوضوح ما نراه مثلاً في قوله تعالى في معرض

(١) سورة الانعام الآية : ٩٩ .
(٢) سورة الحديد الآية : ٢٠ .

البرهنة على قدرته على كل شيء – ومن ذلك بعث الأموات – : **(الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون)** (١) .

وإننا نرى أن للمفسرين رأيين في فهم هذه الآية الكريمة ويهمنا استعراضهما لتقدر قيمة استعمال لفظ « الأخضر » في الاستدلال على المراد . الرأي الأول يذهب إلى أن الله خلق هذا الشجر من ماء حتّى صار أخضر نضراً ذا ثمر وينع ، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً توقد به النار . وعلى هذا الرأي يكون مناط العبرة هو الانتقال بالنبات من النضرة والخضرة – وهما قد يضادان قبول الإيقاد – إلى اليبس والحطبية ، وهما يساعدان ويقبلان الاتقاد . أما الرأي الثاني فيقول إن المراد بذلك شجر مخصوص هو شجر المرخ والغفار ، وهو شجر ينبت في أرض الحجاز فيأتي من أراد قدح نار – وليس معه زناد – فيأخذ منه عودين أخضرين ويقدح أحدهما بالآخر فتتولد النار بينهما كالزناد سواء (٢) .

ونختار هذا الرأي الثاني لأن فيه يبرز التناقض بين الطراوة والخضرة وبين اشتعال النار ، وقد يرشح ذلك ما تقرؤه وما نشاهد في التلفاز من حرائق الغابات حيث تبدو بعض الأشجار وكأن بها نفطاً أو بترولاً رهيباً يؤجج النار ويسعرها . ولعل لاختيار هذا المثل الخاص باللون الأخضر في هذه المناسبة دلالة في الإشارة إلى أن هذا اللون « الأخضر » أو الخضرة في ذاتها ، وإن اتخذت أمارة في الكثير من الأمثلة والشواهد على التنعم والرقة ، وما يحسن مما سنجد من أوصاف بعض أشياء الجنة – نقول إن هذه الخضرة في حد ذاتها لا يمنحها الإسلام أهلية ذاتية وقدرة تأثيرية قط إلا بمقدار ما يشاء خالقها ، وبعبارة أُخرى فإن الإسلام لا يضحي قط بأية جزئية أو طرف مهما كان بسيطاً من جزئيات أو أطراف عقيدته الأساسية وهي التوحيد ، من حيث إنه إلى الله سبحانه يرجع الأمر كله . ولهذا لم تنشأ قط عبادة ألوان أو الخشية والرهبة والتقديس للون معين ، اللهم إلا على وجه الاستحباب من الوجهة التربوية الذوقية .

---

(١) سورة يس الآية : ٨٠ . (٢) أنظر : ابن كثير / ٣ .

على أنه يمكن أن يقال بصورة عامة إن الخضرة — كما هي في واقع هذه الحياة — ترتبط بالخصب والنماء والخير والبركة ، حتى إنها كثيراً ما تأتي في الأحلام وتفسر على هذا النحو . لقد سجّل القرآن حلم فرعون — ذلك الحلم الذي كان نذيراً بأهوال طوال — والذي لم يتعدّ مرتبة أضعاث الأحلام في نظر كهنته وعرّافيه ، ولكنه كان يحمل رمزية معبرة فهمها وأولها يوسف الصديق — عليه السلام — أفضل تأويل . والمهم في هذا الحلم أنه رمز فيه بالسنابل السبع الخضر للسنوات الخصبة التي ينمو فيها المحصول ويعم الخير ، كما رمز بالسنابل اليابسة الجافة لسنوات الجدب الرهيبة — وهذه هي رمزية النبات . أما الرمزية في الحيوان فقد اكتفى فيها بجعل السمنة رمزاً للخصب ، والهزال رمزاً للجدب ، وهكذا كانت البقرات السمان إشارة إلى سنوات الخصب والخير ، والبقرات العجاف إشارة إلى السنوات المجدبة .

وعلى هدى تفسير يوسف الصديق أمكن رسم الخطة الاقتصادية البارعة التي مكنت مصر — ومنطقة الشرق الأوسط — من اجتياز هذه الأزمة التي كانت ستودي بأهل هذه المنطقة ، لولا رحمة الله ولطفه فيما منح يوسف من القدرة على الفهم والتأويل لرموز الأحلام .

إن تفسير يوسف لهذا الحلم وبناء خطته الاقتصادية وحدوث ما توقعه تماماً فيه رد حاسم ومفحم على هؤلاء الذين يعممون أحكامهم عندما يرون أن جميع الأحلام ليست إلا استمراراً لنشاط العقل الباطن ؛ وربما كانت استئنافاً للنشاط اليومي واستصحاباً ، وربما ترجمة للمكبوت من الرغبات والأماني ، وليست لها أية دلالة تنبؤية أو إخبارية عن المستقبل .

إننا لا ننكر أن تكون بعض الأحلام حديثاً نفسياً في دائرة الحس الباطن أو ما تحت الشعور ، ولكننا نلاحظ أن مثل تلك الأحلام لا تكون لها في الواقع دلالات أو تأثيرات نفسية عميقة كتلك الأحلام الأخرى التي تحمل رسالة أو مفهوماً .

* * * * *

وإذا كان القرآن الكريم قد عالج الألوان في مختلف ظواهر الكون والكائنات بما يشمل الإنسان والحيوان والنبات والجماد ، وذلك كله في نطاق عالم الشهادة ، فإنه عالج الألوان أيضاً في شتى مناحي عالم الغيب وبخاصة فيما يتصل بحالة السماء وبأحوال الجنة والنار وأهلهما وما يكتنفهم من متسع أو يحل بهم من عقوبات . وقد أشرنا فيما سبق إلى أن حقيقة هذه الألوان لا تعني أن تكون بالضرورة مماثلة للألوان التي نعهدها في هذه الحياة بناء على أن ما في الآخرة ليس فيه من الدنيا إلا الأسماء .

فمن النقاط الهامة التي طرقها القرآن الكريم بالنسبة للظواهر الطبيعية الكبرى كالسماوات والكواكب تتحدث آياته عن تبدلهما حيث تنشق السماء **(فإذا هي وردة كالدهان)**(١) أي أنها تذوب كما يذوب الدردي — وهو ما يركد في أسفل كل مائع كالشراب والأدهان . وهي تكون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها ، فتارة حمراء وصفراء ، وتارة خضراء وزرقاء ، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم .

وقد ذكر ابن عباس — رضي الله عنهما — في تفسير الوردة التي كالدهان بأنها كالأديم الأحمر أو الفرس الورد ،على حين فهم بعضهم من « كالدهان » أي كألوان الدهان ، ويرى البعض الآخر أن الآية تعني أن السماء تكون كلون دهن الورد في الصفرة ، وربما صار لونها أخيراً إلى الحمرة (٢).

لـون الوجـوه :

وتتبدل وجوه الناس يوم القيامة من حيث اللون حتى إن القرآن ليذكر أنه « **(يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون)**(٣) .

---

(١) الرحمـن : ٣٧ .

(٢) مختصر ابن كثير / ٣ / ٤٢٠ .

(٣) آل عمران : ١٠٦ ، ١٠٧ .

وواضح أن ما يقصد بالاسوداد هنا القتامة والغبرة والكآبة ــ لا اللون الأسود في إطلاقه . فهو نظير قوله تعالى : **(ووجوه يومئذٍ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة) في مقابلة . (وجوه يومئذٍ نافرة إلى ربها ناظرة)**(١).

وما نريد إيضاحه هنا هو أن الاسوداد في الآخرة ليس هو الاسوداد المعهود في الدنيا من حيث كونه لوناً قد يتمتع به بشرة بعض الناس . لأن السواد الذي يصف بشرة بعض الناس ودرجاته المختلفة قد ذكر في القرآن آية من آيات القدرة والغنى ، وكما ذكر في مقام الامتداح والثناء ، وإذن فلا يحق لمتخرص أن ينسب إلى الإسلام أية نزعة عنصرية أو لونية ، وليس له أن يحتج بأن السواد قد جعل في الآخرة علامة من علامات سوء المصير ؛ لأننا أكدنا ومازلنا نؤكد أن هذا السواد الأخير هو ثمرة كسب المرء الذي سوّد نقاء صحيفة ضميره ووجدانه ، ولوث جوارحه بمعصية الله ، فليس سواده ذلك اللون الذي خلقه الله به ، لأن سواد البشرة لا يعدو أن يكون في الحياة الدنيا مثل غيره من الألوان آية من آيات الله ، أما ذلك السواد الأخروي فهو سواد التلوث والقتامة والغبرة وسوء المآب ؛ فهو سواد مشين لأنه ثمرة الانحراف .

وبالمثل يمكن أن يقال إن بياض البشرة في الحياة الدنيا ليس مدعاة للفخر لأنه لا يزيد على أي لون في كونه آية من آيات الله ، أما في الآخرة فهو أمارة النقاء والطهر وحسن العاقبة ؛ ولذا حق للمرء أن يفخر به لأنه من ثواب الله سبحانه . فالسواد في الآخرة عار ، والبياض في الآخرة فخار ، وهما معاً في الدنيا متساوياً مع سائر الألوان في جلد الإنسان كآية من آيات الله .

ويتحدث القرآن الكريم عن المجرمين من حيث كونهم سيحشرون « زرقا » **(يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذٍ زرقا)**(٢) **ويذكر المفسرون** أن هذه الزرقة إنما هي في أعينهم من شدة هول ما هم فيه فكان على وجوههم السواد ، وسرابيلهم من قطران أي : سرابيلهم سوداء سواداً ملوثاً شأن أساريرهم وأسرارهم ويجمعون إلى هذا قبح الزرقة في أعينهم .

---

(١) القيامة : ٢٤ ، ٢٥ .　　(٢) طه : ١٠٢ .

والواقع أن وجاهة تخصيص الزرقة بالعين غير واضحة، اللهم إلا أن تكون مستندة إلى حديث نبوي صحيح — ولم يذكر هؤلاء لذلك سنداً، وإذن فما المانع أن تشمل الزرقة سائر بدن المجرمين نتيجة لاحتباس الدم في أجسامهم من الهول، على حين تسود وجوههم؛ فيجمعون ألواناً منفرة منهم ودالة عليهم وعلى سوء أعمالهم ؟ ولعل ذلك يرشحه قوله سبحانه: إنه يحشرهم زرقا ، ولم يقل « زرق العيون » أو « أعينهم زرقاء » .

والملاحظ أنه بالمقارنة بين الجنة والنار من حيث الألوان يتجلى أن القرآن الكريم يولي الجنة عناية فائقة من حيث الإشارة إلى ألوان ما فيها ومن فيها بصورة تفصيلية مثيرة للشوق ودافعة إلى الحنين والتكريم . ويشمل ذلك الحور الحسان ، والثياب والأردان والكؤوس والولدان والفرش والوسائد والأشربة والقلائد؛ كل ذلك يصاغ في لوحات جمالية رائعة تستحث خطا الإنسان ، وتشده إلى الاجتهاد والمثابرة للظفر بما فيها .

فهناك (**جنتان . . مدهامتان**) (١) أي خضراوان قد اسودتا — كما يقول ابن عباس — من شدة الري . ولاجدال في نضارة الأغصان على الأشجار المشتبكة بعضها في بعض . وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قوله: « إن نخل الجنة سعفها كسوة لأهل الجنة منها مقطعاتهم ومنها حللهم ، ورقها ذهب أحمر ، وجذوعها زمرد أخضر، وثمرها أحلى من العسل وألين من الزبد وليس له عجم » (٢) .

أما الحور العين فـ (**كأنهن الياقوت والمرجان**) (٣) قال مجاهد والحسن : أي هن في صفاء الياقوت وبياض المرجان فجعلوا المرجان هو اللؤلؤ .

وعن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : « إن المرأة من نساء الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة من حرير » وذلك قوله

(١) الرحمـن : ٦٤ .
(٢) مختصر ابن كثير : ٣ / ٤٢٤ .
(٣) الرحمـن : ٥٨ .

(كأنهن الياقوت والمرجان) . فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيته من ورائه .

ويصفهن القرآن وصفاً آخر فيقول : **(وعندهم قاصرات الطرف عينٌ ، كأنهن بيضٌ مكنونٌ)**(١). ونحن نوافق ابن جرير الذي يرى أنه بياض البيض حين ينزع قشره لأن قوله « مكنون » يمنع أن يكون لون البيضة ذاتها؛لأن القشرة العليا يمسها جناح الطائر والعش وتنالها الأيدي بخلاف داخلها .

لقد روى قوله ﷺ « أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشرهم إذا حزنوا ،وأنا شفيعهم إذا حبسوا . لواء الحمد يومئذٍ بيدي،وأنا أكرم ولد آدم على الله عز وجل ولا فخر . يطوف عليّ ألف خادم كأنهن البيض المكنون أو اللؤلؤ المكنون » .

وقد روى الترمذي بعض هذا الحديث(٢) .

ويتطلع كيانك كله وتشرئب نفسك إلى ما وراء هذا التعبير القرآني المعجز عن نعيم أهل الجنة : **(وإذا رأيت ثمَّ رأيت نعيماً وملكاً كبيرا . عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهورا . .)** (٣)

والسندس الرقيق من ثياب الحرير والاستبرق الموشى منه والبراق اللامع . وهم يتكئون **(على رفرفٍ خضرٍ وعبقرى حسان)** فالرفرف الوسائد أو رياض الجنة والعبقري جياد الزرابي أو الديباج وهي البسط التي تفرش لأهل الجنة كما أشار إلى ذلك الحسن البصري ، وكل ثوب موشى عند العرب تسميه عبقرى وبخاصة إذا كان متقن الصنعة رائعها .

وأما الأشربة فتعرف ألوانها أحياناً بمجرد ذكر أسمائها ، وأحياناً أخرى ينص على لونها إذا كانت هناك شبهة واحتمال لمقارنتها بأشربة الدنيا .

---

(١) الصافات : ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) انظر مختصر ابن كثير : ٣ / ١٧٩ .

(٣) الانسان : ٢١ .

فبالنسبة للخمر مثلاً تنعقد الصلة بينها وبين آثارها على العقل والصحة العامة فينفي عنها الغول والضرر «لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون»(١). بل ينفي التشارك بينها وبين خمر الدنيا حتى في مجرد اللون إذ تكون خمر الآخرة **(بيضاء لذة للشاربين)**(١) . وكما يقول ابن كثير أي لونها مشرق حسن بهي لا كخمر الدنيا في منظرها البشع الردي من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة مما ينفر الطبع السليم .

وتأمل روعة التعبير في قوله تعالى : **(يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين)** حيث يصلح الوصف بيضاء لكل من الخمر والكأس وهنا يحق أن نذكر قول الشاعر :

رق الزجـــاج وراقت الخمـــر فتشـــابها وتشاكل الأمـــر

فكـــأنما خمـــر ولا قـــدح وكأنمـــا قـــدح ولا خمـــر

مع الفارق الجوهري الخطير ،وهو أنه لا تشاكل ولا حيرة ، بل لذة متواصلة ونعيم مقـــيم .

وإذا كان أهل الجنة ذوي **(وجوه مسفرة ضاحكة مستبشرة)** فإن أهل النار وجوههم باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة ، وإذا كانت الجنة قد زينت في فرشها وحورها وشرابها وأوانيها ووجوه أهلها ، فإن النار قد تضرمت وتفاقم سعارها حتى : **(إنها ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالت صفر)** (٢) .

وقد اختلفت الآراء حول معنى « القصر » فمنهم من قال إنها الحصون أو أصول الشجر . كأنه جمالت صفر أي إبل سود ، وهنا نجد كلمة صفر فسرت بسود . ولا تدري من أين استمد هؤلاء مثل هذا المعنى ولعل ابن عباس - رضي الله عنهما - يصبب كبد الحقيقة حين يذكر أنها حبال السفن أو قطع النحاس . ويظهر أن هذا المعنى قد يضع في اعتباره أن الناس في العصور الأولى كانوا يعمدون إلى خشبة ما طولها ثلاثة أذرع أو يزيد

(١) الصافات : ٤٧ ، ٤٦ .
(٢) المرسلات : ٣٢ .

فيرفعون بها البناء ويسمونها القصر . وقد نميل إلى كون الجمالة الصفر قطع النحاس ، لما يشير بالدقة إلى لون المعدن المتوهج توهجاً خالصاً ، إذ هو حقيقة قريب من الصفرة إن لم يكن الصفرة ذاتها .

أما بقية أحوال جهنم فيكتفي فيها بذكر الأشياء المخصوصة التي يحدد مجرد ذكرها اللون المطلوب فقوله تعالى عن أهل جهنم إن : (**لهم مقامع من حديد**)(١) يكفي في الدلالة على سواد ما يضربون به إلى جانب سواد وجوههم وزرقة أبدانهم وأعينهم . وقوله تعالى : (**سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار**)(٢) . كاف في الدلالة على سواد وقذارة ملابسهم إلى غير ذلك من الأشياء الدالة بذاتها على ألوانها — كشجرة الزقوم وطعام وطعام الغسلين وماء الحميم وما إلى ذلك .

* * *

ولا يفوتنا ونحن نتحدث عن الألوان في القرآن الكريم أن نعرج على آية لا تتناول الألوان صراحة، ولكنها تشير حقيقة إلى عمل التلوين نفسه وأنه من الله سبحانه كما فسره رسول الله ﷺ فيما يروي عنه . وهذه الآية هي قوله تعالى : (**صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون**)(٣) وقد نسب إلى ابن عباس تفسيره (**صبغة الله**) بدين الله ، ولكن يروى عنه أيضاً أنه ذكر عن النبي ﷺ أنه قال : « إن بني إسرائيل قالوا (لنبيهم موسى عليه السلام) يا رسول الله : هل يصبغ ربك ؟ فقال موسى : ربك فقل : نعم . أنا أصبغ الألوان الأحمر والأبيض والأسود والألوان كلها من صبغي »(٤) .

ويعلق ابن كثير على ذلك بأنه في رواية ابن مردويه مرفوع وهو في رواية ابن أبي حاتم موقوف ، وهو أشبه إن صح إسناده والله أعلم . وقد مرّ بنا

---

(١) الحج : ٢١ . (٢) إبراهيم : ٥٠ .
(٣) البقرة : ١٣٨ .
(٤) مختصر ابن كثير : ١ / ١٣٣ .

مثل هذا الحديث منسوباً إلى نبينا ﷺ والسؤال منسوباً إلى بعض الصحابة أو الزائرين له .

وليس هناك ما يمنع من أن تكون هناك مناسبتان قال نبينا في أحداهما ما حصل من بني إسرائيل ومن موسى وربه عز وجل ، وفي الأخرى أجاب بما عرف أنه الحق الذي لا غضاضة فيه مادام قد صدر التصريح به من الله عز شأنه .

« الألوان في السنة النبـــوية »

كما تضمن القرآن الكريم أنماطاً شتى في معالجة الألوان في عالمي الغيب والشهادة دون أن ينال ذلك قــط من تنزيه الله سبحانه ووحدانيته كما رأينا في التوراة ، فإن السنة النبوية المطهرة اشتملت على معالجات عدة لظاهرة الألوان في صورتها العامة وفي صورتها المحددة المميزة لكل لون على حدة . وقد تضمنت هذه المعالجات أغراضاً متنوعة منها الوصف الدقيق الصحيح ومنها إيضاح الخفي الغامض ، ومنها جمع القلوب وتأليفها ، وتربية وتعهد حاسة الذوق والجمال في نفوس أتباعه صلوات الله عليه ، وكل ذلك يتم دون إلغاز أو إيغال أو تطرف ميتافيزيقي يخل بأساس العقيدة أو مقتضيات الشريعة .

غير أنه من المهم أن ننبه من البدء أن هناك أحاديث كثيرة يجب على الباحث إزاءها أن يكون حذراً فلا يقبل منها إلا ما توفرت فيه شروط الصحة والقبول التي حددها رجال الجرح والتعديل . والواقع أن هؤلاء الرجال – رضي الله عنهم – قد أدوا أجل الخدمات بالنسبة للسنة النبوية بدرجة أمنت السبيل إليها ، وسلطت الأضواء على الضعيف والموضوع فيها . وقد يكون من المفيد للباحث أن يتذرع بالشك المبدئي إذا جاء الحديث على لسان فرقة تدعو إلى نمط فكري أو سياسي خاص ، فإننا نعلم أن كثيراً من الفرق الإسلامية حاول التماس تأييد الدين لنهجهم فكلما أعياهم ذلك

في القرآن الكريم ، لجأوا إلى السنة النبوية ، ولعلّ من أوضح الأحاديث الموضوعة ما رواه بعضهم من قوله ﷺ — في زعمه — إن الناس بخير ما لبسوا السواد »(١) . إذ أن الملاحظ أن مثل هذا الحديث المنسوب للرسول صلوات الله عليه . إنما راج في أواخر القرن الأول الهجري وأوائل القرن الثاني — أي قبيل وأثناء قيام الدولة العباسية التي اتخذت السواد شعاراً لها . فكأن دعاة العباسيين أذاعوا مثل هذا القول ليضموا إليهم غالبية الناس في زي خاص يحيطونه بقداسة شرعية بجعل اتخاذه توجيهاً نبوياً . ولا يعقل أن يربط الرسول خيرية الحياة البشرية بلبس السواد ، وزوال هذه الخيرية بزوال مثل هذا اللباس .

والواقع أننا سنرى سائر الألوان تقريباً تظهر في السنة القولية والفعلية للرسول الكريم .

ولعلّ أول ما يصافح وجوهنا وأسماعنا هو وصف الرسول الكريم لسنته ولدينه القويم إذ يقول مخاطباً أجيال المسلمين : « قد تركتكم على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، فهو هنا يصف ما تركه — صلوات الله عليه — من قرآن وسنة وتشريع بالبياض في الوضوح والصفاء والطهارة لا يشوبها ظلمة أو خفاء أو درن . ولا جدال في أن وضوح الإسلام ، ممثلاً في كتابه وسنة نبيه ، أمر لا يختلف عليه اثنان . ويكفي أن يدرك المرء قاعدة الحل والحرمة في الإسلام ليقنع بوضوحه وصلاحه لكل البشر في جميع الأزمان وهذه القاعدة بسيطة وواضحة هي الأخرى في صورتها العامة والخاصة وهي « تحليل الطيبات وتحريم الخبائث » . إننا نشير إلى ذلك دون الدخول في مناقشة أساس التحسين والتقبيح وما دار حولهما من خلاف بين أهل السنة والمعتزلة ؛ لأن غرضنا لا يتعلق بذلك أصلاً ؛ وإنما يتعلق بحكم صريح وحاسم ، ووصف حقيقي لما تركه الرسول نبينا في صورة محسوسة واضحة ومقنعة ؛ وقد كان البياض أنسب الأوصاف لتحقيق

(١) مما يعزز وضعه أنه لا يذكر إلا في كتب التاريخ المذهبي .

هذا الغرض بأبلغ بيان ، وتمضي الصورة متسقة ومنسجمة في قوله : « ليلها كنهارها » إذ معنى ذلك استواء طرفيها في الوضوح والنصاعة والضياء والطهر والهداية . ومن هنا كان من يزيغ عنها لابد هالك .

وقد يستعمل الرسول الكريم تميز الألوان وانفرادها بين لون متشابه متماثل كناية عن تمييز السلوك والسيرة وتفرد الصلاح والخيرية فقد روى عمرو بن العاص فقال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ في هذا الشعب — وكان بحر الظهران وهو موضع قرب مكة — إذ قال : انظروا . هل ترون شيئاً ؟ فقلنا نرى غربانا فيها غراب أعصم **أحمر المنقار والرجلين** فقال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة من النساء إلا من كان منهن مثل هذا الغراب في الغربان »(١) ولعل مراده صلوات الله عليه — والله أعلم — أن من يستحق الجنة من النساء لابد وأن يتخلص مما تقع فيه الكثيرات من الآثام الشائعة التي يعم بها البلوى بين النساء . وقد استفيد هذا مما يفهم من تفرد هذا الغراب — والعهد بسائر الغربان السواد الفاحم — بحمرة المنقار والرجلين والمثل هنا تام بارع للغاية ، وكأنه يشير إلى الغرة والتحجيل، والأولى في الوجه والأخرى في القدمين — وهذا كما ورد في السنة عن المؤمنين ثمرة الوضوء والمواظبة على الصلاة ، بأنهم غر محجلون .

ولعلّ الرسول الكريم قد وجد في ندرة وتفرد هذا الغراب فرصة للإشارة إلى صعوبة تخلص النساء مما جبلن عليه من الثرثرة والغيبة والتطلع وما إلى ذلك من أوجه الضعف النفسي والخلقي الذي إذا رُشِّد ووُجِّه ضمن لهن حسن المـــآب .

---

(١) أورده الهيثمي في المجمع : ١٠ / ٣٩٩ ، انظر مسند الشاميين : ٢ / ٨٠٠ .

الألوان في واقع الحياة الإسلامية في عهد الرسول الكريم

إن مما يلفت النظر في عهد الرسول الكريم بالنسبة للألوان هو ألوان الرايات والأعلام التي اتخذت في مواقف الغزو أو المواقف الأخرى الجادة التي كانت تتطلب الاجتماع والالتفاف حوله صلوات الله عليه ، أو التفاف جماعة أو قبيلة معينة حول أميرها أو رئيسها . وقد ورد أنه في فتح مكة جعلت القبائل في جيش المسلمين تمر مع النبي الكريم كتيبة كتيبة على مرأى ومسمع من أبي سفيان،وذلك ليريه مدى كثرة وقوة بأس المسلمين،مما أثار إكبار وإحلال أبي سفيان للجيش الإسلامي،حتى إنه ليعبر عن ذلك بقوله للعباس : لقد أصبح ملك ابن أخيك عضودا ، ليجيبه العباس بأنها النبوة وليست الملك .

لقد تنوعت ألوان هذه الرايات فكانت هناك الرايات البيض التي تبلغ مقدار ذراع في ذراع ، وكذلك كان اللواء في غزوة بدر أبيض . أما في فتح مكة فتتعدد الروايات ويظهر أنها جميعاً صحيحة؛لأنها كانت تصور جميع الألوية والرايات . فمن ركز على جماعة معينة تحمل لوناً معيناً ظن أن هذا هو اللون الغالب السائد في الجيش . والدليل على تعدد الرايات والألوان ما يذكره النسائي وأبو داود عن جابر أن لواء النبي يوم دخول مكة كان الأبيض الأصفر أو الأصفر الخالص كما كان له لواء أسود ، وأمامه رايتان سوداوان أحدهما مع علي ؛ والآخر مع الأنصار .

كما ورد أن عمرو بن العاص حين قدم من جيش ذات السلاسل وجد الرسول — ﷺ — يخطب في المسجد وأمامه رايات سود تخفق وذلك احتفالاً بنصر الله للمسلمين .

كما كانت هناك الراية الكبرى السوداء من الصوف والتي كانت تسمى العُقاب(١) .

وهناك رايات مخططة أو منقطة بها النقاط السود والبيض وذكر ابن عباس أن راية النبي ﷺ سوداء ولواءه أبيض وكان مكتوباً عليه لا إلـــه إلا الله محمد رسول الله .

وقد كان لسعد بن مالك الأزدي راية سوداء وفيها هلال أبيض وقد شهد فتح مصر ومنه أخذ رسم صورة الهلال في الراية الإسلامية إبان الخلافة الإسلامية .

ويذهب البعض إلى أن رسم الهلال يعتبر علامة رسمية اتخذها العثمانيون بعد نجاحهم في هزيمة والد الاسكندر المقدوني ،إذ صادف أن يكون ذلك وقت السحر ورؤية القمر فاستبشرت به واتخذت الهلال شعاراً رسمياً لذلك؛ولكن إذا لاحظنا الرواية السابقة الخاصة باتخاذ سعد بن مالك الهلال رمزاً لم نر مانعاً من أن يكون ذلك هو مصدر التبني للشعار في سائر الأقطار الإسلامية .

ومهما يكن من أمر فإن استخدام الرايات والأعلام والشعارات الملونة كان عاملاً هاماً في جمع القلوب وتأليفها وتحميس الجند في التفافهم حول اللواء وإكسابهم الشعور بالعزة والتفاني في الفداء والجهاد .

ولم تقتصر الألوان على الرايات والأعلام والشعارات ، بل شملت أيضاً الرءوس من حيث لون تعميمها . وقد لبس صلوات الله عليه العمامة من كل لون تقريباً . ولا حاجة لسرد هذه الألوان ومناسبتها إلا أنه ينبغي أن يعلم أنه كان له صلوات الله عليه لامة سوداء،إذا لبسها لم يضعها حتى تتم الغزوة ويحسم الأمر وكان ﷺ يقول : « ما كان لنبي أن يضع لامته حتى يفصل الله بينه وبين قومه » .

---

(١) انظر في ذلك نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية للكتاني : ١ / ٣١٨ - ٣٢٢.

وكان صلوات الله عليه يأمر أصحابه أن يتخذوا شعاراً يضعونه على رءوسهم أو جبهتهم وكثيراً ما كان يقول لأهل بدر يوم بدر : « تسوّموا فإن الملائكة قد تسومت » يشير بذلك إلى ما ورد في القرآن الكريم من إنزال الله ملائكة مسومين لتقاتل مع المؤمنين . وكان بعض الصحابة يضع عصابة حمراء أمارة على العزم على القتال ، وشعاراً يسهل التعرف عليه بين المقاتلين .

وقد ورد أيضاً أن راية الأنصار في بعض المعـــارك كانت صفراء ، وأن راية وفد سليم كانت حمراء،وهكذا اتخذت الرايات والأعلام سائر الألوان وإن غلب اللون الأسود في مجال الجد والقتال(١) .

وقد سجل الرواة ألوان مخصصات الرسول الكريم ، لاسيما الحيوان كالناقة الحمراء والبغلة البيضاء ، ولعل من المناسب الآ ن أن ننتقل إلى جانب آخر اشتملت عليه السنة في توازٍ وانسجام واتساق مع القرآن الكريم . وهذا يتجلى بصورة رائعة فيما يتعلق بعالم الغيب أو ما يدني منه .

الألوان وعالم الغيب في السنة :

في حديث شق صدر الرسول الكريم وكان ما يزال عند مرضعته السيدة حليمة يذكر أنه أقبل على الرسول ﷺ طائران أبيضان كأنهما بشران واستخرجا بعد الشق من قلبه علقتين سوداوين هما موضع الغل والحقد . فالملائكة هنا تأخذ مظهر الطائر من جهة والبشر من جهة واللون الأبيض من جهة أخرى ، وموضع الغل والحقد يتخذ اللون الأسود — وهذا مطرد في وصف السوء أو الخلل النفسي والسلوكي(٢) .

وقد يحاول البعض أن يعتبر ذلك مجرد رمز ينم عن معانٍ تجريدية وحقائق روحية،وأنها وضعت على هذه الصورة الرمزية بغيه الإيضاح بإحالة

---

(١) راجع نظام الحكومة النبوية التراتيب الإدارية : ١ / ٣٢٢ — ٣٢٩ .

(٢) تذكر القصة في كتب السيرة / ابن هشام ، والطبقات الكبرى لابن سعد وفي تعليقات المفسرين على آيات الإسراء —

المجرد الذهني إلى محسوس ملموس ، وقد نرى في ذلك تكلفاً ومحاولة لإخضاع عالم الغيب لمقاييس ومعايير آدمية ، وهذا خطأ فادح في المنهج . على أنه حتى بافتراض الرمزية لا تعـــدم الألوان دلالتها في هـذا الصدد ، وهذا ما نود تأكيده والإلحاح عليه .

إن ذلك يماثل أيضاً ما روى بشأن الإسراء والمعراج إذ يذكر أنه قد عرض على رسول الله ﷺ الماء والخمر واللبن – وفي رواية يزاد العسل ، فتناول رسول الله اللبن فقال له جبريل أصبت الفطرة ، ولو شربت الماء لغرقت وغرقت أمتك ، ولو شربت الخمر لغويت ولغوت أمتك(١) . وهذا المثال ترد فيه الألوان بمجرد دلالة الأسماء . فعدمية اللون تتمثل في الماء والحمرة في الخمر والبياض في اللبن والصفرة أو الحمرة الداكنة في العسل وهذا مثل ما ذكر في وصف أنهار الجنة التي تشمل الماء غير الآسن ، واللبن الذي لم يتغير طعمه والخمر اللذة للشاربين ، والعسل المصفى(٢) وكل ذلك يشير إلى الألوان والطعوم بمجرد الأسماء في القرآن الكريم ، وإن كنا قد رأينا في بعض الآيات منح الخمر لوناً مخالفاً لخمر الدنيا في قوله تعالى (بيضاء لذة للشاربين)(٣) .

وتتتابع الألوان في وصف الرسول الكريم لبعض أحواله وأحوال الظواهر والآيات التي أراه الله إياتها على سبيل البشرية والتكريم في هذه الليلة المباركة ليلة الشرف بالإسراء والمعراج .

فالبراق الذي حمل الرسول ﷺ دابة بيضاء فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه (٤) .

وفيما يصف الرسول من مشاهد حتى غشى سدرة المنتهى ما غشاها . عظمة عظيمة وفراش من ذهب وألوان متعددة وغشيتها الملائكة وقد رأى النبي ﷺ رفرفا أخضر قد سد الأ ُفـــق .

(١) مختصر ابن كثير : ٢ / ٣٥٧ .
(٢) سورة محمد : ١٥ .
(٣) سورة الصافات : ٤٦ .
(٤) انظر مختصر ابن كثير : ٢ / ٣٥٦ .

ويتحـــدث صلوات الله عليه عما وضح له من عواقب الأعمال وأنماط السلوك فيما رآه على المذنبين والطائعين وما يطرأ عليهم من ألوان العقاب والثواب .

كما يخبرنا ﷺ عن بعض مشاهد القيامة فيقول : « يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأُمتي على تل ، ويكسوني ربي - عز وجل - حلة خضراء ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول ، فذلك هو المقـــام المحمود »(١) .

ويروي مسلم عن صهيب عن النبي ﷺ قوله : « إذا دخل أهل الجنة قال - يقول الله تعالى ! تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ، قال فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب من النظر إلى ربهم وهي الزيادة في قوله تعالى (**للذين أحسنوا الحسنى وزيادة**)(٢) .

وهكذا نرى تبين السنة للقرآن الكريم واتساقها معه وتأمل تبيض وجوه أهل الجنة ثم فضل الله في منحهم شرف النظر إلى وجهه الكريم وتأمل كذلك تحديد موضع التفسير من القرآن الكريم وهو المقصود من الزيادة في قوله تعالى : (**للذين أحسنوا الحسنى وزيادة**) ، وكل هذه المواضع تجدها في القرآن الكريم كما سبقت الإشارة إليه .

* * *

وبعـــــد . . .

فقد آن لنا أن نلم أطراف حديثنا وأن نجمع جوانب دراستنا في المحيطين اليهودي والإسلامي حتى تسهل المقارنة وتسلم الموازنة في حسم ووضوح

(١) أخرجه الإمام أحمد عن كعب ابن مالك (قارن مختصر ابن كثير : ٢ / ٣٩٤) .
(٢) سورة يونس : ٢٦ ، وانظر ابن كثير : ٣ / ٥٧٧ . ويسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ورقة بن نوفل الذي صدق النبي قبل أن يبعث فيجب بأنه « رآه وعليه ثياب بيض » ولو كان من أهل النار لكان عليه ثياب غير ذلك » انظر الجامع الصحيح - سنن الترمذي : ٤ / ٥٤٠ حديث رقم ٢٢٨٨ (دار إحياء التراث سعربي - بيروت) .

لقد عالجنا الألوان في المحيط اليهودي من جوانب عديدة فرضتها طبيعة التطورات والتغييرات والتفسيرات التي طرأت على التراث اليهودي في أصوله الأولى ، وليس في آثاره المتأخرة فحسب ؛ فعرضنا الأساس الرمزية في الألوان من الوجهة الميتافيزيقية، ثم عالجنا علاقتها بالجانب الكهنوتي والتنظيم الطقسي للعبادة ومزاولة الشعائر ، ولمسنا ردود الفعل المضادة لهذا التنظيم المعقد، ثم عالجنا التأويل الفلسفي للألوان في مواضع متعددة من حيث ربطها بنظام الخلق ونظرية الفيض والصدور ، وتمثيلها للصفات بل للطاقة أو الذات الإلهية في بعض المواضع ؛ مما أوقع القائلين بها في وحدة التشبيه أو وحدة الوجود ولم نغفل علاقة الألوان بالأحلام ، واكتفينا في ذلك برؤية حزاقيل ودانيال مع أنه كان من الممكن أن تذكر رؤى وأحلام أخرى وبخاصة تلك الرؤيا الطويلة التي يقال إنها استغرقت أربعين عاماً ، وهي رؤيا عاموس إلى آخر كل هذه الرؤى . ولكن كان المراد ذكر نماذج وأمثلة وليس المراد استيعاب التراث كله . واستمرت المعالجة للألوان لتوضح علاقتها بالعادات ثم بالآثار التي تركتها الحركة الصفاوية بعد معالجاتنا لعلاقة الألوان بالنزعة القومية وبالعصبية القبلية . وقد يلاحظ القاريء عدم ورود الحديث عن الألوان فيما يتعلق بالدار الآخرة ثواباً أو عقاباً ، ولعله يدهش لذلك ، والواقع أنني أشاركه الدهشة لخلو كتاب سماوي من الحديث عن الآخرة بالتفصيل أو حتى عن القيامة بصور عامة ، وكذلك عن البعث(١) .

إن هذه الظاهرة من أقوى الدلائل على وقوع التحريف والتبديل سواء بالحذف أو بالإضافة ، ويتضح تعليل ذلك بما نطالعه في جوانب أخرى من التراث وبخاصة في التلمود الذي نلاحظ فيه التركيز على هذه الحياة باعتبار أن مملكة الله كما تصورها اليهود إنما تتم هنا في هذه الحياة . وفيها يغدو الله ملكاً على شعبه المختار الذي تكون له السيادة والسيطرة مهما كانت

(١) قد يرد شيء من ذلك في أسفار ملحقة ولكن ليس في التوراة ذاتها ، ولا يعقل أن يغفل نبي أمراً كهذا .

الوسيلة(١) وأياً كان السبيل . إن التلمود نفسه قد صيغ بطريقة مرنة تُتيح لقارئيه أن يبدلوا ويغيروا في أحكام الله وتشريعاته حسب المصلحة العاجلة ، وكأن القائمين على هذا الأمر روادا لذوي الأخلاق النسبية ولكثير من المذاهب المرتبطة بالواقعية والبرجماتية كما يتصورها الغرب .

ولا يمنعنا ذلك من الإشارة في نطاق المقارنة بالإسلام ، أن هناك بعض أوجه الشبه في اختيار الرايات والأعلام المميزة للكتائب والجماعات ، وإن كانت في الجانب اليهودي تتسم بالحدة العصبية وترسيخ ذاتية القبيلة ورايتها ،وتحديد أفرادها بتسجيل أسمائهم على صدر الكاهن أو على الراية واللواء ، على حين أن الرايات في الإسلام لم تكن إلا لجمع الشمل وتأليف الجماعة وتسهيل لقائها على الأمر الجامع دون تحديد لإنية أو ذاتية الفرد أو القبيلة ، وما ذلك إلا لأن التنظيم العسكري لم يقم على أساس العرق أو الدم ، وإنما قام على أساس الإيمـــان وحسن البلاء . ومن ناحية أُخرى يخلو الإسلام تماماً من التنظيمات الكهنوتية التي تتخذ الألوان رمزاً لتحديد المراتب وتمييزها ، فقد لبس صلوات الله عليه كل الألوان وإن كان قد حبب لبس البياض في أيام الجمع والأعياد،لما يضفي هذا اللون على مرتديه من منظر جميل يحدوه الصفاء والطهر والنقاء . وبما أن الأبيض سريع التأثر بالاتساخ فإنه ينبه المسلم إلى واجبات النظافة الحسية،ومعها بالطبع النظافة المعنوية . ولعله لهذا المعنى حبب تكفين الميت في ثياب بيضاء وبسيطة ، ولا نجد مبرراً لعزو لبس المسلمين الثياب البيض لتأثير الحركة الصفاوية اليهودية في القرن السادس عشر ، فإننا نلاحظ أن المسلمين قد لبسوها قبل ذلك بكثير ، بل لبسوها في عهد الرسول الكريم ، حتى إذا كان قد أثر عن جميع الأنبياء تقريباً لبس الصوف فقد كان الغالب على هذه الثياب البياض . ولا مانع من أن يتوافق تشريعه من بعض التشريعات السماوية الصحيحة السابقة فقد نطق بذلك القرآن (٢) .

(١) انظر : سفر الملوك : ١ / ١٢ ، أشعياد : ٣٠ / ٩ — ٢١ ، أدميا : ٢٨ .
وقارن / د . محمد كمال جعفر / الإسلام بين الأديان : ١٠٣ وما بعدها .

(٢) كما قال سبحانه : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا . . . الخ الآية . الشورى : ١٣ .

ويروى في السيرة النبوية أن جبريل عليه السلام - وهو الملك الموكل إليه أمر الوحي - جاء إلى الرسول الكريم وهو بين أصحابه وعليه ثياب شديدة البياض ناصعة بدرجة ملفتة للنظر ، باعتباره غريباً لابد وأن يكون قد قطع الفيافي والأودية حتى وصل إلى الرسول ﷺ كما قدّر الصحابة . وكانوا بالطبع لا يعلمون أنه جبريل جاء في صورة بشرية ، وقد رأينا قبل ذلك وصف الرسول الكريم للملكين اللذين وكل إليهما شق صدره الشريف وتخليصه من علقتيه السوداوين .

أما فيما يتصل بالألوان والأحلام - كما ورد في القرآن الكريم - فقد عرضنا لحلم فرعون - وقد فسره يوسف الصديق - وهو من أنبياء بني إسرائيل ، وقد رأينا فيه رمزية اللون بعيدة عن الافتعالات التي نجدها في جوانب كثيرة من التراث اليهودي . وقد نقل القرآن الحلم بدقة وأمانة كما كان التأويل في غاية الدقة والفطنة مما استحوذ صدقه على تفكير فرعون وقراره بالاستعانة بهذا النبي الكريم في تلافي هذه الأزمة الخطيرة . وهذا الحلم كما رأينا بعيد عن الأحلام والرؤى أو المكاشفات الأخرى التي سجلت لكثير من أعلام بني إسرائيل - ومن بعدهم لأعلام المسيحية - فهي أحلام ومكاشفات تنبيء عن الاخلال بمبدأي التنزيه والتوحيد للإله عز سلطانه .

وقد لاحظنا أيضاً خلو المصادر الإسلامية الأولى فيما يتصل بالألوان من النظريات المسرفة للخلق ، بل إننا نرى القرآن يحسم هذا الأمر فيما يتصل بادعاءات البعض شيئاً من العلم بأصل الخلق والخليقة وذلك بقوله تعالى : « ما أشهدتّهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم ، وما كنت متخذ المضلين عضداً » (١) .

وذلك إخبار علمي صادق وحق ، يفي بكل قواعد العلم الصحيح ، حتى بالمقاييس الإنسانية البحتة ، فالعلم التجريبي كما يراه أهله لا يكون علماً صحيح النتائج إلا إذا كان عن ملاحظة ومشاهدة دقيقة بريئة من الهوى

(١) الكهف : ٥١ .

والآراء الشخصية والأفكار المسبقة ، قادرة على الصمود للاختبارات ووسائل الشك والتجريب وبذلك استطاع القرآن في إيجاز أن يؤكد أن كل تصريح يتصل بأصل الكون أو كيفية الخلق ـ ما لم يكن إلهي المصدر ـ هو في الواقع ثمرة من ثمرات الحدس والتخمين والظن ، (وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً » (١) .

أما في بعض القصص التي تضمنت اللون والتي تتفق في كثير من جوانبها في كل من التوراة والقرآن كقصة البقرة التي طلب موسى من بعض قومه أن يذبحوها فقد لاحظنا بعض الاختلاف في اللون حيث يذكر في التوراة أنها حمراء ، بينما يذكر في القرآن أنها صفراء فاقع لونها . ويجوز على رأي القائلين بتطور عمل شبكية العين عبر القرون أن يكون إدراك العين للألوان أكثر دقة وقت نزول القرآن فأتى باللون الدقيق الذي يحدد معالم الشيء الموصوف ، لاسيما إذا علمنا أن المصادر اليهودية يعوزها الكثير بالنسبة لتحديد درجات اللون كما رأينا خلو التوراة نفسها من هذا المصطلح « اللون »

وإذا كان هناك من يجعل النور مفتاح البحث في قضية الألوان على أساس أن النور هو الذي يوجد حقيقة التمييز بين الألوان ويمكن العين من الحكم على الأشياء من حيث شكلها ولونها فقد رأينا أن التوراة تذكر خلق النور على أساس أنه لم يكن موجوداً كما تقول أولى آيات التوراة « وقال الله ليكن نور فكان نور ، ورأى الله النور أنه حسن . وفصل بين النور الظلمة » (٢).

والنص القرآني في هذا الصدد أدق وأكثر وفاء بالحقيقة وهو يتصدر سورة الأنعام : (الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) . فقد فرق القرآن في هذه الآية بين الخلق والجعل، فنسب الأول للسماوات والأرض، ونسب الثاني للظلمات بصيغة الجمع وبالنور بصيغة المفرد . فإذا وضعنا في اعتبارنا أن الله عز وجل

(١) سورة النجم : ٢٨ .

(٣) سفر التكوين : ٣ (العهـــد القديم) .

نور وهو حقيقة (نور السماوات والأرض)(١) . لم يكن من المناسب أن يقول خلق النور ، ولم يكن مناسباً كذلك أن يعدد النور وإنما المناسب أن يشار بجعل نوع خاص من النور الذي يتناسب مع الكون، وتستطيع الخلائق أن أن تتحمله وتنتفع به . أما العبارة الواردة في التوراة فهي تسوي بين النور والظلمة في الإفراد وكأنهما عدلان متوازيان مما يذكر بالمبدأ الثنائي المجوسي المتمثل في النور والظلمة ــ ثم كيف يقال إن الله قال : ليكن نور فكان نور ــ أي بعد أن لم يكن ــ ثم رآه الله ووجده حسناً ، وكأنه ــ عز شأنه ــ لا يعرف ما النور وهو سبحانه نور الأنوار ونور السماوات والأرض كما ورد في القرآن الكريم ، وكما ثبت أيضاً في السنة الصحيحة على لسان الرسول الكريم حين سئل هل رأيت ربك؟ فقال: نور أني أراه » وكذلك فيما ثبت عن جبريل عليه السلام .

أما فيما يتعلق بالعقول والقوى والأفلاك وارتباطها بالألوان المميزة فإننا نجدها مقتصرة على التراث اليهودي وإن كان نظام العقول كما تقضي بذلك نظرية الفيض قد عرفت طريقها إلى الفلسفة الإسلامية خارج المصادر الأصلية للإسلام ، صحيح أنه قد دأب الفلاسفة المسلمون على التأويل حتى تتساوق النصوص الإسلامية الخالصة مع معطياتهم الفلسفية ، وأيد الخط الفكري الإسلامي المستقيم ولم يمكن لمتكلف أن يتطرف أو يتوغل في هذه النظريات والآراء الغربية .

إن مثل هذه الآراء والأحاجي لم تغز المحيط الإسلامي إلا في مراحل متأخرة على أيدي الفرق الباطنية التي انتهى عملها في بعض الجوانب إلى إحالة القرآن الكريم إلى معرض من الرموز والطلسمات والأحاجي والألغاز التي تشير إلى حقائق مزعومة بعيدة عن المفاهيم المباشرة المستقيمة لهذه النصوص القرآنية(٢) . وبتحليل مثل هذه الاتجاهات وجد أنها تخدم أغراضاً

(١) سورة النور : ٣٥ .

(٢) وقد دخل تراث ضخم يحوي كثيراً من الإسرائيليات التي لعبت دوراً خطيراً في بلبلة الأفكار وفي تأجيج الصراع والخلاف بين العلماء والفرق المختلفة ، ونشأت تأملات الحروفية والرقمية والزايرجة وغير ذلك من علوم الأسرار والمعميات .

شخصية كترويج آراء أو مذاهب سياسية وفكرية معينة ، وهي ترمي في النهاية إلى صرف المسلمين عن الأهم ، وهو التعلق بالقرآن لتطبيق أحكامه وتدبر آياته والأخذ بتعاليمه وتوجيهاته في تربيتنا وحياتنا اليومية . وقد رأينا في المحيط الإسلامي أن كثيراً من الشبهات والآراء المتطرفة حول القرآن نفسه تلك الآراء التي أججت أزمة المحنة لأعلام الإسلام إنما تسربت إلى المحيط الإسلامي عبر قنوات يهودية أو مجوسية من أناس لم يقاوموا ما طفا على سطح عقولهم وقلوبهم من تراث دياناتهم القديمة من جانب ، و أناس يجندون خلقاً آخر لهذا العمل من جانب آخر .

* * *

إننا في هذه الدراسة المبدئية العجلى لم نعالج الجانب المسيحي ، ولم نطرق الزوايا الفنية لعالم الألوان في هذه الديانات الثلاث . وما عسى أن يكون قد أضافه كل منها لهذا العالم الثري بالألوان والقسمات ، وإنا لنسأل الله سبحانه أن يهبنا من الوقت والاستطاعة ما نفي به وعدنا بمعالجة هذه المشكلات ، لاسيما ونحن كنا قد بدأنا منذ فترة طويلة معالجة الانبثاق الفني لفلسفة الجمال في الإسلام .

إن ما نراه اليوم من اتخاذ الألوان والرموز لغة عالمية ودولية في كثير من المواقف والقطاعات كالمرور والطب والمؤسسات العالمية يجعلنا نستحث الخطا في هذه الدراسة المستوعبة وبخاصته ميدان الألوان والدراسات والآثار النفسية وهو بلا شك موضوع خصب يعد بالكثير من الثمـــار .